الناصر صلاح الدين

تأليف

أسامة حسن

الناصر صلاح الدين

دار الأمل

الناشر : دار الأمل

العنوان : ٨ شارع عبد العزيز حامد - أول الملك فيصل - الهرم

تليفون : ٥٨٦٠٨٩٢

رقم الإيداع : ٩٧/٥٦٥٦

الترقيم الدولي : 0 - 11 - 5823 - 977

طبع : مطابع زمزم

العنوان : العاشر من رمضان

جمع وإخراج : أرمس للكمبيوتر

العنوان : ٣٢ ش على عبد اللطيف - مجلس الأمة - لاظوغلى

تليفون ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

المقدمة

لو فتحنا كتب التاريخ ـ وما أكثرها ـ لوجدناها مليئة بسير العديد من الأبطال الذين سطروا بعرقهم وكفاحهم قصص البطولة التى صارت سطوراً مضيئة فى سجل التاريخ الكبير .

ومن حق كل دولة أن تفخر وتعتز بأبنائها الأبطال وتحرص على أن تصل أخبارهم إلى كل فرد من أفراد الشعب فمن يدرى فلعل هذا السرد التاريخى لقصص الأبطال والإتيان بصور البطولة التى حققها هؤلاء الأبناء الأبطال حافزاً لغيرهم لينهجوا نهجهم وينسجوا على منوالهم قصصاً جديدة يسطرها التاريخ والتاريخ ـ كما يقولون ـ يعيد نفسه .

ولا ننسى أننا عندما يذكر الأبناء قصص البطولة التى صنعها هؤلاء الأبطال من السلف الصالح سيكون هذا تعميقاً للانتماء لهذا الوطن وغرساً للقيم وتجعل من الأجيال القادمة حراساً على ما قدمه هؤلاء الأبطال من أجل خير الوطن وإسعاد أبنائه . وبطلنا صلاح الدين الأيوبى لم يكن بطلاً على المستوى المحلى داخل القرية التى نشأ فيها أو البلد التى ينتمى إليها بل كان بطلاً على مستوى أكثر بكثير مما ذكرنا لذا كان الحديث عنه حديثاً يثلج الصدر ويطيب النفس لأعلى مستوى الوطن العربى فحسب بل على مستوى البشرية جمعاً .. يصبح ذكره نشيداً يردده الطفل والشاب والشيخ ويطرب له كل إنسان لأنه يحكى قصة بطل وقف شامخاً صامداً فى وجه العدوان الغاشم والعدوان طبيعة بشرية يتصف بها نوع من الطامعين وما أكثرهم وفى هذه الحالة تكون الحاجة إلى من يستنفر الحماس ويستنهض الهمم ويذكرهم بأبطال لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام العدوان الغاشم بل وقفوا وصمدوا

وجاهدوا وقدموا من أجل بلادهم كل رخيص وغال حتى تحقق لهم النصر ولاذ العدوان بالخزلان والهزيمة والخسران .. وهذا لا يمنع من أن البطل الذى جاهد ببسالة يحمل قلباً يذوب رقة فيأمر فى خضم المعركة عن طفل جاءت أمه لصلاح الدين تطلب منه أن يبحث لها عنه .. ويصدر صلاح الدين أوامره بالبحث عن هذا حتى يجد الطفل ويعيده إلى أمه .. ويشجع هذا التصرف الإنسانى من جانب صلاح الدين الأم لأن تطلب منه أن يعيد إليها زوجها الأسير الذى غرروا به وخدعوه باسم الصليب ليحارب فى هذه الحرب ..

ويعيد صلاح الدين الرجل الأسير وتفاجأ الأسرة بسماحة الإسلام مما يجعلها تعلن إسلامها عن إيمان ..

وتتكرر المواقف الإنسانية لهذا القائد الإنسان عندما يقام عرس فى معسكر الأعداء ويطلبون من صلاح الدين هدنة ليتم الفرح فى هدوء .. وبلا تردد يوافق البطل الإنسان ويوقف القتال من أجل إسعاد الأسرة الصغيرة .. إنه القائد الإنسان والبطل الشهم الملتزم بمبادئ وأخلاق النبلاء الفرسان والذى نحرص أن تصل هذه القدوة إلى أبنائنا فى زمن عز فيه وجود القدوة .. وخوفاً من أن يبحثوا عن القدوة فى دنيا الزيف وتجميل ما لا يستحق ..

ومنذ أن غاب صلاح الدين الأيوبى بجسده عن الساحة إلا أن أعماله وأفعاله مازالت تجتذب القلوب وتهفو لذكرها النفوس لأن الأطماع مازالت تظهر بوجهها وتتخفى وراء مختلف الأقنعة وما زالت الحاجة إلى روح صلاح الدين ملحة مثل الحاجة إلى الصلاح .

المؤلف

تمهيد

الدولة العباسية بلغت فى أوائل القرن التاسع الميلادى درجة واضحة من القوة والاتساع وازدياد النفوذ وكان الخليفة العباسى يبسط نفوذه على دولته الواسعة التى امتدت من المحيط إلى الخليج .

وأخذ الخلفاء العباسيون واحداً بعد الآخر فى مواصلة الجهاد والاستيلاء على الحصون والتوغل فى آسيا الصغرى ودفع أباطرة القسطنطينية الجزية مقابل الصلح مع المسلمين .

ولكن الموضع تبدل منذ تولى الخليفة المعتصم العباسى الذى أخذ فى الاعتماد على الأتراك وأصبح الخلفاء العباسيون أداة فى أيدى أمراء الأتراك وأصبحت السلطة الفعلية فى يد كبير الأمراء والذى اتخذ لقب « أمير الأمراء » وأدى ذلك إلى تفكك الخلافة العباسية فأدى ذلك إلى ظهور الدولة السامانية والدولة الزيارية والدولة الغزنوية والدولة الحمدانية والدولة البويهية .

وأخذت الخلافة العباسية تنتقل من سيء إلى أسوأ وتولى منصب الخلافة فى مدة ثمان سنوات « ٨٦١ ـ ٨٦٩هـ » أربع خلفاء مات منهم اثنان مقتولان هما المعتز بالله والمهتدى بالله وأدى هذا الانحلال والتفكك الذى أصاب الدولة العباسية إلى زيادة هجمات الروم على أطراف العراق والشام ولكن الأتراك السلاجقة أخذوا يغيرون على أراضى الروم فى آسيا الصغرى وأنزلوا بهم الهزائم ولم يجد الروم مفر من الاستنجاد بغرب أوربا والبابوية بعد هزيمتهم أمام السلطان ألب أرسلان السلجوقى فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وأدى ذلك إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ .

لم تكد تمر بضع سنوات حتى كان الصليبيون قد أسسوا ثلاث إمارات كبرى فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، إضافة إلى مملكة بيت المقدس الصليبية واتخذ الصليبيون من هذه المراكز الكبرى قواعد ينشرون منها نفوذهم على بلاد الجزيرة والشام .

ولكن المسلمين حاولوا وقف الزحف الصليبى وحدث أن تجمعت قرب شيزر قوة إسلامية بزعامة ملك دمشق وأمير حمص واستطاعت هذه القوة أحداث بعض التفوق على الصليبيين ولكن هذه الجهود قد باءت بالفشل وترتب على ذلك سقوط أنطاكية فى يد الصليبيين فى يونية ١٠٩٨ .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس في يوليو سنة ١٠٩٩ غير أن المسلمين احتموا بالمسجد الأقصى وكان عددهم أكثر من سبعين ألفاً ولكن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية فى تلك المدينة إذ اقتحموا المسجد الأقصى وقتلوا كل من فيه من علماء وأئمة المسلمين وهذا ما ذكرته المراجع المسيحية والإسلامية، ولكن الخلافة العباسية كانت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال بحيث لم تستطع الرد على هذا العدوان وكانت مقاومة الفاطميين فى مصر ضعيفة وحاول الوزير الأفضل أن يمنع استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ولكن الصليبيين أنزلوا هزيمة بالقوات الفاطمية فى ١٢ أغسطس فهرب الوزير الأفضل إلى مصر وهكذا أصبح الصليبيون لهم السيادة على بلاد الشام وفلسطين وسقطت حيفا فى أيديهم فى أغسطس سنة ١١٠٠ وفى العام التالى استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس على أرسوف وقيسارية ثم استولى على عكا سنة ١١٠٤ وأصبح الصليبيون لهم السيادة على شواطيء فلسطين .

غير أن الفاطميين أرسلوا ثلاث حملات ضد الصليبيين وكانت آخرها سنة ١١٠٥ ولكنها لم تحقق أى نجاح واتخذ الفاطميون مدينة عسقلان مركزاً لتهديد الصليبيين .

ولكن بلدوين الأول أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية استطاع السيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت وشيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك . ولكن الملك بلدوين أراد مهاجمة الفاطميين بعد أن أحس بمدى ضعفهم ولكنه يبدو أنه أرادها حملة استكشافية فقط واستطاع أن يعبر الصحراء من غزة حتى العريش والفرما دون أى تهديد من الفاطميين ، وصل الصليبيون فى مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها واستولوا على قدر كبير من الغنائم بعد أن وجدوا المدينة خالية من أهلها ثم وصلوا بعد ذلك إلى مدينة تنيس جنوب بحيرة المنزلة غير أن بلدوين مرض وتوفى قرب العريش فى أوائل أبريل سنة ١١١٨ .

الجهاد ضد الصليبيين

أرسل السلطان محمد السلجوقى حملة تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل واجتمع تحت قيادة مودود أتابك الموصل كثير من حكام الأقاليم فى دولة السلاجقة واتجهوا إلى مهاجمة الرها التى استعصت عليهم فعبروا نهر الفرات لمهاجمة تل باشر ولكن بعد ذلك جاءتهم استغاثة من رضوان صاحب حلب فتركوا تل باشر واتجهوا إلى حلب ولكن رضوان خاف من اقتراب الأتراك من حلب وأغلق فى وجه المسلمين أبواب البلد ولم يجتمع بهم وأسرع بالتحالف مع بعض القوى الصليبية وظلت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه القوات الإسلامية المتحالفة .

وانصرف الجيش الإسلامى عن حلب واتجه إلى حوض نهر العاصى يعمل ضد الصليبيين ولكن طغتكين صاحب دمشق رفض التعاون مع المسلمين فى أى عمل ضد الصليبيين لأنه خاف أن يأخذ الأتراك منه دمشق فشرع فى مهادنة الصليبيين سراً وقد فشلت هذه الحملة نتيجة عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق وتخوفهما من قوة مودود .

ولكن طغتكين دخل فى صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور وطلب طغتكين مساعدة مودود أتابك الموصل وعبر مودود الفرات ومعه بعض أمراء السلاجقة حيث اتجهوا إلى طبرية لحصارها مع طغتكين ولكنها استعصت عليهم ولذلك اتجهوا إلى تدمير الممتلكات الصليبية حتى جبل الطور .

وحلت بالصليبيين الهزيمة فى موقعة الصنبرة وبلغت خسائر الصليبيين ألفاً ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان وخرجت فى نفس الوقت القوات الفاطمية

من عسقلان واستغلوا فرصة انشغال الصليبيين بمحاربة المسلمين قرب طبرية وأخذت القوات الفاطمية تدمر وتنهب الأراضى الصليبية حتى اقترب الفاطميون من أسوار بيت المقدس .

وصل إلى عكا ستة عشر ألفاً من الحجاج الغربيين مما جعل ذلك أن ينصرف كل من مودود وطغتكين إلى دمشق وأمر مودود رجال جيشه فى العودة والراحة على أن يجتمعوا فى الربيع لمواصلة الجهاد أما مودود فقد بقى فى دمشق فى ضيافة طغتكين ولكن مودود قتل فى الجامع الأموى بدمشق وذلك عند شروعه فى تأدية صلاة الجمعة والأغلب أن طغتكين تآمر على ضيفه وحرض على قتله . ولذلك لم يجد طغتكين حليف يطمئن إليه سوى الصليبيين وهكذا أثبت أمراء الشام أنهم لا يقدروا المصلحة العليا للأمة وإنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام .

وبعد مقتل مودود عهد السلطان محمد السلجوقى إلى أقسنقر بحكم الموصل وقام أقسنقر بهجوم على الرها وكان معه ابنه عماد الدين زنكى وظل يحاصر الرها شهرين ولكن الصليبيين قاوموا المسلمين وانصرف أقسنقر عن الرها بعد ذلك وجه هجماته إلى سروج وسميساط ولكن السلطان محمد السلجوقى عزل أقسنقر وأحل بدلاً منه جيوش بك وعهد إلى قيادة الحرب ضد الصليبيين إلى الأمير برسق صاحب همذان وكان بعض الأمراء مثل طغتكين فى دمشق وبدر الدين لؤلؤ فى حلب أرادوا قطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية وبعض منهم لم يترددوا فى محاربة السلطان محمد السلجوقى ولذلك أمر السلطان السلجوقى اعداد حملة كبيرة بقيادة الأمير برسق سنة ١١١٥ لاخضاع هؤلاء الأمراء ثم محاربة انطاكية والرها ولكن أمراء ديار بكر ودمشق وحلب اتفقا على محالفة الصليبيين وأدى ذلك إلى هزيمة برسق فى موقعة دانيث سنة ١١١٥ وهكذا أدى ذلك إلى انقسام الجبهة الإسلامية إلى هذه الهزيمة .

ولكن الأمير ايلغازى خرج على رأس جيش كبير واستطاع أن يهزم الصليبيين فى موقعة البلاط سنة ١١١٩ وقتل فيها عدد كبير من الصليبيين وكان ضمنهم روجر الانطاكى صاحب انطاكية .

بعد موقعة البلاط استطاع المسلمون الابقاء على حلب فى قبضتهم . استمر ايلغازى يهدد الصليبيين وهاجمهم سنة ١١١٩ بالاشتراك مع طغتكين أتابك دمشق ثم هاجمهم سنة ١١٢٠ ثم سنة ١١٢١ ولكن ايلغازى توفى سنة ١١٢٢ وأثر ذلك تأثيراً سيئاً فى قوة المسلمين غير أن المسلمين سنة ١١٢٣ استطاعوا أسر بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ولكن الجهود التى قامت بعد ذلك كانت فردية على أثر الانقسامات الداخلية فى صفوف المسلمين .

ضعف القوى الإسلامية
فى الشرق الأدنى

فى سنة ١١١٨ توفى السلطان محمد السلجوقى وأخذت سلطنة السلاجقة فى الاضمحلال وخلفه ابنه محمود وكان فى الرابعة عشر من عمره وترك محمود شئون الحكم فى أيدى الوزراء وكانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت مجرد شكل ولم يكن للخليفة أى سلطان أو نفوذ حيث استطاعت أحد القبائل العربية « بنو مزيد » أن تستولى فى المنطقة الواقعة حول الحلة غربى الفرات ولم يلبث صدقة بن مزيد أن يبدأ فى إنشاء دولة فى العراق مستقلة عن السلاجقة وعن الخلافة العباسية واتخذ لنفسه لقب « سيف الدولة » ولكن جيوش السلطان محمد استطاعت أن تهزم صدقة وقتلوه سنة ١١٠٨ ولكن دبيس بن صدقة استطاع مهاجمة بغداد ونهب المدينة وقتل أهلها ونصب مخيماً فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، استنجد الخليفة العباسى المسترشد بالله بالسلطان محمود السلجوقى وأمر السلطان أحد الأمراء وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل بمحاربة « دبيسى بن صدقة » ولكن آقسنقر البرسقى هزم بالضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ وأدى ذلك إلى زيادة نفوذ دبيسى بن صدقة ولكن السلاجقة استطاعوا هزيمة الأمير دبيسس فى سنة ١١٢٣ عند المباركة بين بغداد والكوفة وهكذا يتضح مدى الضعف التى وصلت إليه القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ومدى ضعف الخلافة العباسية التى لم تستطع أن تتزعم القوى الإسلامية لرد خطر الصليبيين على البلاد الإسلامية ولكن الخلافة كانت أضعف من أن تحمى نفسها .

أراد الخليفة المسترشد بالله أن يكون له جيش خاص بالخلافة ولكن السلطان محمود السلجوقى عارضه بل وأرسل إليه عماد الدين زنكى على رأس جيش واستطاع عماد الدين زنكى حاكم الموصل أن يهزم جيوش الخليفة .

وفى نفس الوقت كانت الخلافة الفاطمية تعيش فى اضمحلال بعد مقتل الوزير الأفضل سنة ١١٢١ .

عماد الدين زنكى

عماد الدين زنكى هو ابن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب وهو قائد من أبرز قادة السلطان ملكشاه السلجوقى وقد أعطاه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ولكن آقسنقر قتل سنة ١٠٩٤ .

وأخذ زنكى فى ترقى إلى أن أصبح حاكم البصرة وأبرز شجاعة فى كل الأعمال التى أسندت إليه وبخاصة إخضاع الخليفة المسترشد بالله سنة ١١٢٦ ثم اختاره السلطان أتابكا على الموصل .

واستولى عماد الدين زنكى على « نصيبين » من الأراتقة ثم استولى على «حران » التى كانت محاصرة من جانب القوات الصليبية .

وأراد زنكى الاستيلاء على حلب بعد أن تنازعت عليها السلاجقة والأراتقة وطمع فيها أمير الرها وأمير أنطاكية ولكنه استطاع الاستيلاء على حلب فى سنة ١١٢٨ واستقبله أهل حلب استقبالاً رائعاً ولكن عماد الدين زنكى صادف معارضة من جانب الأمراء المسلمين ولذلك حاربوه الأراتقة ولكنه استطاع هزيمتهم .

استطاع زنكى أن يستولى على « الرها » سنة ١١٤٤ وجاء استيلاء زنكى على الرها ضربة قوية بالنسبة للصليبيين لأن الرها كانت أول الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق وأخذ زنكى يخضع المدن الصليبية ولكنه قتل سنة ١١٤٦ على يد أحد حراسه .

نور الدين محمود

نور الدين محمود أحد أبناء زنكى ، استطاع نور الدين محمود تثبيت قدمه فى حلب وامتاز نور الدين محمود بالعقل وبعد النظر والحرص على مصالح المسلمين وتولى حلب بعد وفاة أبيه وكان عمره أقل من الثلاثين كما امتاز بقدرته على اختيار الرجال .

أراد نور الدين محمود أن يوصل سياسة أبيه فى جهاد الصليبيين واستهل نور الدين محمود حكمه بالقيام بهجمات مباشرة ضد امارة أنطاكية واستولى على عدة قلاع وعندما وصلت الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع إلى الشام استطاع نور الدين محمود أن يستغل فشل تلك الحملة ويهاجم أمير أنطاكية فى سنة ١١٤٩ وأنزل به هزيمة وكان ضمن القتلى أمير انطاكية ورينو صاحب كيسوم ومرعش . وكان فرح الناس بهذا الانتصار عظيماً .

غير أن نور الدين محمود أراد تنظيم القوى الإسلامية من الفرات إلى النيل فى وجه الصليبيين ولكن مدينة دمشق كانت فى يد معين الدين أنر الذى يحالف الصليبيين ولذلك أراد نور الدين محمود أن يكتسب ود معين الدين أنر فتزوج ابنته

على أن أنر ظل على محالفة الصليبيين خوفاً من أطماع نور الدين محمود على الرغم من أن العلاقات بين معين الدين أنر والصليبيين كانت بها بعض الفتور عندما أغار الصليبيون على دمشق سنة ١١٤٧ وعندما حاولت الحملة الصليبية الثانية الاستيلاء على دمشق سنة ١١٤٨ ورغم ذلك عمل حكام دمشق على الابقاء على الصليبيين حلفاء لهم فى مقاومة نور الدين محمود .

وبعد وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ تولى مجير الدين وكان ضعيف وظل حليفاً للصليبيين حتى طمعوا الصليبيون فى دمشق وصار أهل دمشق يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم من نور الدين محمود .

ولكن أهل دمشق لم يرضوا عن هذا الوضع الشائن وتمكن نور الدين محمود مع أهل دمشق من الاستيلاء على دمشق سنة ١١٥٤ وأصبح الاستيلاء على دمشق نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية وجاء الاستيلاء على دمشق خطوة نحو تحقيق الجبهة الإسلامية المتحدة فى الشرق الأدنى وقد أغلق نور الدين محمود الطريق الشمالى فى وجه مملكة بيت المقدس الصليبية بعد استيلائه على دمشق ولم يبق لمملكة بيت المقدس إلا طريق الجنوب حيث كانت الدولة الفاطمية تعانى من سكرات الموت .

الصليبيون ومصر

بعد استيلاء نور الدين محمود على دمشق قرر الصليبيون أن يتجهوا إلى التوسع الصليبى ولكن فى اتجاه آخر على حساب مصر والفاطميين . أخذ الصليبيون فى الاستيلاء على عسقلان آخر قاعدة للفاطميين فى فلسطين وفى الوقت التى كانت الدولة الفاطمية تحتضر بعد أن أصبح الوزراء أصحاب السلطان فى البلاد وأصبحت الدولة الفاطمية تعيش فى جو مشبع بالمؤامرات ، كل ذلك ساعد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى الاستيلاء على عسقلان فى سنة ١١٥٣ ولكن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس مات قبل أن يدخل مصر فخلفه أخاه عمورى الأول الذى تولى العرش سنة ١١٦٢ وقرر عمورى الأول أن يدخل مصر وشجعه على ذلك استمرار تدهور أوضاع الدولة الفاطمية حيث أن الخليفة الفاطمى الظافر مات مقتولاً سنة ١١٥٤ واستبد الوزير طلائع بن رزيك بالسلطة ثم تولى الخلافة الفائز ومات وهو فى الحادية عشر من عمره سنة ١١٦٠ ثم تولى العاضد الخلافة الذى ما لبث أن دبر مؤامرة لقتل الوزير طلائع بن رزيك وتمت المؤامرة سنة ١١٦١ ثم تولى العادل بن رزيك الوزارة ولكن لم يظل أكثر من خمسة أشهر ثم قتله بعد ذلك شاور حاكم الصعيد .

غير أن شاور أساء معاملة الخليفة العاضد وأساء معاملة الرعية واستطاع أبو الأشبال ضرغام أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣ .

فى هذا الوقت استطاع الملك عمورى غزو الدلتا سنة ١١٦٣ وصل إلى بلبيس غير أن حملة عمورى الأول فشلت بسبب ارتفاع النيل وامتلاء الترع والأراضى بالمياه .

وفى هذه الأثناء لجأ شاور إلى نور الدين محمود يستنجد به ضد ضرغام وتعهد شاور أن يدفع لنور الدين محمود ثلث دخل البلاد وأن يكون نائباً له ولكن نور الدين محمود تردد بعض الوقت ولكنه أرسل حملته الأولى على مصر سنة ١١٦٤ وكان قائد هذه الحملة هو أسد الدين شيركوه وكان معه ابن أخوه اسمه صلاح الدين بن أيوب وكان عمره فى السابعة والعشرين .

صلاح الدين بن أيوب

أسـد الدين شيـركـوه وأخـوه نجم الدين أيوب من أهل مـدينة دوين أحـد مـدن أرمنيـة ، قـصـدا العراق عند مـجـاهد الدين بهـروز الذى كـان ينوب عن سلطان السلاجقة على بغداد وعهد بهروز إلى نجم الدين أيوب بالولاية على تكريت فأقام بتكريت ومعه أخوه شيركوه وفى هذه الأثناء قامت الحرب بين عماد الدين زنكى حـاكم الموصل والخليفـة العبـاسى المستـرشد وهزم زنكى عند تكريت سنة ١١٣٢ وأسرع نجم الدين أيوب بتقديم المعونة والمساعدة إلى زنكى وأقام نجم الدين السفن التى ساعدت زنكى وأصحابه على الفرار .

ولكن نجم الدين أيوب لم يطل بقاؤه فى تكريت إذ عزله مـجاهد الدين بهـروز عنهـا ويقال أن السبب هو مـسـاعـدته لزنكى أو أن أسد الدين شيـركـوه قتل إنسـاناً بتكريت ظلماً .

وغـادر نجم الدين أيوب ومعه أخاه أسد الدين شيـركـوه تكريت فى نفس الليلة التى ولد فيـهـا صـلاح الدين وتوجـه نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيـركـوه إلى الموصل حيث رحب بهما عماد الدين زنكى ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك عين نجم الدين أيوب ولياً عليها واستمر على ذلك حتى قتل عماد الدين زنكى وتولى بعده ابنه نور الدين محمود ودخل أسد الدين شيركوه فى خدمة نور الدين محمود صاحب حلب وأصبح شيركوه مقدماً على سائر أمراء نور الدين محمود حتى أقطعه مـدينتى حـمص والرحبـة . وعندمـا أراد نور الدين مـحـمـود ضم دمـشق سـاعـده فى ذلك نجم الدين أيوب فى تسليم دمشق وبذلك أصبح كل من نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فى أعلى الرتب عند نور الدين محمود .

خروج شيركوه وصلاح الدين إلى مصر

عهد نور الدين محمود إلى القائد أسد الدين شيركوه إلى أمر الحملة التى تخرج إلى مصر ، خرج شيركوه إلى مصر سنة ١١٦٤ ومعه ابن أخيه صلاح الدين وشاور وعندما علم ضرغام بأن شيركوه فى الطريق إليه استنجد بالصليبيين وتعهد لعمورى بأن تصبح مصر تابعة للملك الصليبى ولكن شيركوه استطاع أن يصل إلى مصر قبل الصليبيين وانتصر أسد الدين شيركوه عند تل بسطا على جيش ضرغام واستطاع شيركوه أن يصل إلى أسوار القاهرة وقتل ضرغام أثناء محاولته الفرار وتولى شاور أمر الوزارة ولكن شاور كان خبيثاً وسرعان ما تناسى وعوده لنور الدين محمود ورفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب من شيركوه الخروج من مصر ولكن شيركوه احتل بلبيس والشرقية واستنجد شاور بالصليبيين ووعدهم بمبلغ من المال مقابل المساعدة ضد شيركوه فحاصر الصليبيون وشاور أسد الدين شيركوه ولكن تم الاتفاق على أن يغادر كل من شيركوه وعمورى الأول مصر على أن يدفع شاور ثلاثين ألف دينار لشيركوه .

الواقع أن خروج نور الدين والصليبيين من مصر بعد هذا الاتفاق وبعد أن وقفوا على مقدار ثروة هذه البلاد وضعفها ، لذلك أرادوا الرجوع من جديد ولكن نور الدين محمود خشى أن يشتت جهوده ضد الصليبيين ولذلك لم يرسل حملة إلى مصر فى سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ حيث كان الموقف فى الشام بالغ الحساسية ويتطلب اليقظة والانتباه ولكن نور الدين محمود خاف أن يستفيد الصليبيون من ثروة مصر وكذلك أرسل الخليفة العاضد الفاطمى يستنجد بنور الدين محمود ضد

شاور وعلى أثر ذلك غادر دمشق أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين سنة ١١٦٧ على رأس حملة ثانية إلى مصر ، ولكن شيركوه عندما أدرك الدلتا خاف من استنجاد شاور بالصليبيين لذلك عبر النيل إلى الجيزة واستنجد شاور بالملك عمورى الأول ملك بيت المقدس وعقدوا الصليبيون اتفاقية مع شاور الذى تعهد بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة طرد الصليبيين لشيركوه على أن يدفع نصف المبلغ فوراً واستعد الصليبيون لمهاجمة شيركوه وعبروا النيل وقرب الأشمونين فى المنيا حدثت معركة البابين فى سنة ١١٦٧ واشترك فى المعركة صلاح الدين وهزم الصليبيين فى هذه المعركة .

اتجه شيركوه إلى الاسكندرية ولم يكد يقترب من الاسكندرية حتى فتح أهل الاسكندرية أبواب مدينتهم ليدخل فى هدوء وذلك لأن أهل الاسكندرية أحسوا بمدى الخطر الصليبى وخاف أسد الدين شيركوه أن يحاصره الصليبيون داخل الاسكندرية فترك ابن أخيه صلاح الدين فى الإسكندرية ومعه بعض الجند واتجه هو إلى الصعيد مع الجزء الأكبر من الجند فاستولى عليها وأخذ يجمع الغنائم وفى هذا الوقت صار عمورى لحصار صلاح الدين فى الاسكندرية واشتد الحصار وقل الطعام وأرسل صلاح الدين إلى عمه يطلب النجدة فأرسل شيركوه يطلب عقد صلح مع الصليبيين على أن يترك عمورى وشيركوه مصر لشاور ولكن عمورى الأول جعل مصر تحت الحماية الصليبية وعليها أن تدفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار مع بقاء قوة من فرسان الصليبيين تحمى القاهرة .

ولكن سرعان ما أثقلت الجزية كاهل البلاد ونضبت مواردها ولذلك رأى شاور أن يتصل بنور الدين محمود ويطلب المساعدة واتفق الطرفين وحاول شاور تأكيد الاتفاق عن طريق الزواج وعرض أن يتزوج ابنه الملك الشجاع من أخت صلاح الدين أو أن يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور .

ولكن الملك عمورى الأول دخل إلى بلبيس على رأس جيش بعد أن حاصرها

ولم يكد يسمع نور الدين بغزو مصر من جانب عموری الأول ملك بيت المقدس وأسرع إلى تجهيز حملة ثالثة على رأسها شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سنة ١١٦٨ وقد خرج صلاح الدين مع عمه كارهاً إذ قال « والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً » .

وفرح أهل مصر بقدوم شيركوه فرحاً كبيراً أمام هذا الترحاب ، رأى عموری الأول أن ينصرف ومعه رجاله وعسكر شيركوه عند أرض اللوق وأخلع الخليفة الفاطمى على شيركوه خلعة الوزارة وأرسل شاور إلى الصليبيين يستدعيهم على أن يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر ، وأراد شاور تدبير مؤامرة لقتل شيركوه وأمرائه وعلى ذلك انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ .

صلاح الدين يتولى الوزارة

ولكن سرعان ما توفى أسد الدين شيركوه ورأى أصحاب الخليفة العاضد أن يتولى صلاح الدين الوزارة وقالوا للخليفة « ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف « صلاح الدين » والرأى أن يتولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا » .

وتولى الوزارة صلاح الدين وكان سنه الحادية والثلاثين من العمر وقد تمنع صلاح الدين فى أول الأمر فى أن يتولى الوزارة وقد رأى الخليفة العاضد الفاطمى أن يتولى صلاح الدين الوزارة وذلك لصغر سن صلاح الدين وعدم خبرته حتى يكون أداة سهلة فى يد الخليفة الفاطمى على الرغم من وجود كبار أمراء نور الدين فى الحملة أمثال عين الدولة الياروقى وقطب الدين خسرو وسيف الدين على بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين .

واستطاع صلاح الدين استمالة قلوب الناس إليه وضعف أمر العاضد الفاطمى وأحبه الجند وأمده نور الدين بقوة من العسكر وكان فيها أخو صلاح الدين شمس الدين توران شاه بن أيوب .

واستطاع صلاح الدين القضاء على رئيس بلاط قصر الخليفة الفاطمى بعد أن عرف أن رئيس البلاط مؤتمن الخلافة يتصل بعمورى الأول والصليبيين للخلاص من صلاح الدين ولكن صلاح الدين رأى أن يقضى على مؤتمن الخلافة وأمر بقتله .

ولكن مقتل مؤتمن الخلافة أدى إلى ثورة السودانيين بمصر لأنه كان نوبى يتعصب للسودانيين الذين بمصر واجتمع السودانيون بالفسطاط ولكن صلاح الدين

أمر باشعال النار فى الأماكن التى اعتصموا فيها بالفسطاط وطلبوا الأمان ثم انتقلوا إلى الجيزة وهناك أبادهم أخو صلاح الدين توران شاه بن أيوب .

ولكن صلاح الدين رأى أن يقضى على حرس الخليفة الفاطمى وكانوا من الأرمن وذلك حتى لا يقوم بثورة مثل السودان وبذلك استطاع القضاء على عناصر الخيانة فى مصر . وكذلك رأى عدم الإبقاء على كبار ملاك الأراضى ولذلك أحل محلهم على أراضيهم جماعة من رجاله وذلك لأن كبار الاقطاعيين وملاك الأراضى كانوا يحرصون على أموالهم ولذلك كانوا يساندوا الفساد . كل ذلك كان يفعله صلاح الدين بوصفه نائباً عن نور الدين محمود . أمام ذلك أحس الصليبيون بالقلق والخوف على مصالحهم بعد ضم مصر إلى دولة نور الدين محمود ، ذلك لأن صلاح الدين ونور الدين محمود أحكما السيطرة على القواعد البحرية مثل الاسكندرية ودمياط ولذلك قرارى عمورى الأول ملك بيت المقدس إلى إرسال طلب المعاونة من الغرب الأوربى أمبراطور ألمانيا وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم من كبار الحكام لانقاذ الصليبيين فى الشرق ولكن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا حالت دون تحقيق رغبة الملك عمورى الأول وبذلك لم يجد سبيل إلا الاستنجاد وطلب المساعدة من الدولة البيزنطية وأعد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين أسطولاً كبيراً واتجه إلى صور ومنها إلى عكا استعداداً لغزو مصر واتجه الصليبيون براً إلى عسقلان ومنها إلى الفرما ومنها إلى دمياط وفى نفس الوقت اتجه الأسطول البيزنطى صوب دمياط وأسرع صلاح الدين إلى تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية ولكن الحملة اتجهت إلى دمياط ولذلك وجد نفسه فى موقف حساس وأرسل يطلب النجدة من نور الدين محمود وأرسل نور الدين النجدة تباعا واستطاع تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وشهاب الدين ـ خاله ـ دخول دمياط ولذلك أرسل صلاح الدين إليها النجدات والإمدادات وأمام ازدياد قوات صلاح الدين وجد الصليبيون أن الانتظار قد طال أمام دمياط وفى نفس الوقت كان نور الدين يهدد

ممتلكاتهم فى الشام ولذلك قرروا العودة إلى عسقلان وأما السفن البيزنطية فقد استغل أهل دمياط جريان النيل ووضعوا على سطح الماء أوانى بها مواد مشتعلة كانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى ونفذت الامدادات والتموين الذى كان مع القوات البيزنطية ولذلك غرق الكثير من السفن نتيجة عدم التحكم فيها على أثر الجوع والارهاق .

وأدى هذا الانسحاب إلى زيادة قوة صلاح الدين فى مصر وفقدت الخلافة الفاطمية الأمل فى التخلص منه .

ورأى نور الدين محمود أن يستغل وفاة قطب الدين مودود أتابك الموصل فى أن يستولى على الموصل سنة ١١٧١ وأصبحت الجبهة الإسلامية تمتد من الفرات إلى النيل .

ورأى صلاح الدين أن يسير فى اتجاهين ، الأول الجهاد ضد الصليبيين والثانى العمل على توحيد القوى الإسلامية ولذلك خرج صلاح الدين فى سنة ١١٧٠ لمهاجمة قلاع الصليبيين وحاول الاستيلاء على غزة نفسها ولكن عمورى الأول ما لبث أن جاء للدفاع عنها ولذلك عاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن أنزل هزيمة بالصليبيين وعمل صلاح الدين على الاستيلاء على أيلة ولذلك بنى عدد من السفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال ثم ركبت واستخدمت فى الاستيلاء على أيلة بحراً .

أراد صلاح الدين توحيد القوى الإسلامية ولذلك عمل على القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية وذلك لأن بقاء الخلافة الفاطمية فى مصر أصبح يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لنور الدين وذلك لأن علاقات نور الدين محمود زادت مع الخلافة العباسية ولأن نور الدين محمود يعتنق المذهب السنى ولم يكن صلاح الدين أقل من نور الدين محمود فى هذا الشأن .

ولكن صلاح الدين ظل متخوفاً من إسقاط الخلافة الفاطمية وذلك لأنه أحس

بتغيير شعور نور الدين نحوه ولذلك رأى أن يبقى على الخلافة الفاطمية لتكون سلاحاً يستخدمه عند الضرورة وأخذ صلاح الدين يماطل نور الدين فى القضاء على الخلافة الفاطمية ولكن نور الدين أرسل إليه إنذاراً نهائياً سنة ١١٧١ يأمر فيه صلاح الدين بأن يحل اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة العاضد فى خطبة الجمعة .

فحل اسم الخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين فى أول جمعة من سبتمبر سنة ١١٧١ محل الخليفة العاضد الفاطمى ومات العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام دون أن يعلم بسقوط خلافته .

وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى .

الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين محمود

بدأت الخلافات بين صلاح الدين ونور الدين محمود بعد وفاة الخليفة العاضد وإسقاط الخلافة الفاطمية فكان صلاح الدين يباشر سلطانه على مصر بوصفه وزيراً للخليفة العاضد وإضافة إلى ذلك أنه كان ينفذ التعليمات الصادرة من نور الدين بصفته نائباً عنه على مصر وكان صلاح الدين إما أن يرضي بطاعة نور الدين فى هذه الحالة يمكن نقله من مصر بناء على طلب سيده نور الدين وإما أن يستقل عن نور الدين ويجعل نفسه ملكاً على مصر .

ويظهر مدى خوف صلاح الدين من نور الدين عندما كان صلاح الدين يهاجم حصن الشويك ولم تستطع حامية الحصن مقاومة صلاح الدين ولذلك طلبت مهلة عشرة أيام للتسليم ولكن صلاح الدين علم بأن نور الدين فى الطريق إليه لمساعدته وتخوف صلاح الدين من نور الدين إذا وصل إلى الشويك بأن يأمر بالقبض عليه وعزله عن مصر ولذلك أسرع صلاح الدين بالانسحاب إلى مصر قبل وصول نور الدين إلى الشويك واعتذر بأن كان لا بد من الاسراع بمساعدة أخيه الذى يحارب ما تبقى من الفاطميين فى الصعيد .

واستاء نور الدين من فعل صلاح الدين ولذلك أخذ نور الدين يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين وأسرع صلاح الدين بعقد اجتماع مع أهل بيته وأمرائه وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين فقال المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين - إذا جاء « نور الدين » قاتلناه ومنعناه عن البلاد وأيد بعض الحاضرين رأى تقى الدين - ولكن الشيخ نجم الدين أيوب والد صلاح الدين تدخل فى الحال ،

فشتم أولئك المتهورين ثم قال : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين الحارمى خالك أتظن أن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا ؟ » قال صلاح الدين « لا » فقال والده نجم الدين أيوب « لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا !! فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فأى حاجة إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد » .

وعندما خرج الجميع انفرد نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له « أنت جاهل قليل المعرفة !! تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك !؟ فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد، لو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحد ، وكانوا يسلمونك إليه . وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه يعرفونه قولى ! » .

والرأى أن تكتب له كتاباً تعلن فيه ولاءك لنور الدين واستعدادك للوقوف بجانبه فنفذ صلاح الدين نصيحة أبيه فصفح « نور الدين » عن « صلاح الدين » وترك عداءه .

وفاة نور الدين محمود

وفى سنة ١١٧٣ قام صلاح الدين بغزو الكرك والشوبك وعندما اقترب نور الدين من الكرك تخوف صلاح الدين وعاد إلى مصر بحجة أن أبيه نجم الدين أيوب مريض وقد استخلفه فى مصر وأنه يخاف أن يموت فتخرج البلاد من أيديهم.

وأمام ذلك قرر نور الدين أن يتجه إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ولكنه توفى فى سنة ١١٧٤ بعد أن استطاع أن يحكم الحصار حول الصليبيين فى الشمال والشرق والجنوب وقد دفن فى قلعة دمشق بعد أن بنى أسوار مدن الشام وقلاعها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النورى بالموصل ومع وفاة نور الدين انتقل مركز الجهاد ضد الصليبيين من الشمال إلى الجنوب وبذلك أصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الصليبيين الغاصبين .

مؤامرة على صلاح الدين

دبرت مؤامرة للقضاء على صلاح الدين وكان على رأس المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى وكان عمارة شديد التعصب للفاطميين وكان معه عبد الصمد الكاتب، والقاضى العوريسى داعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين وحاشية القصر واتفقوا على استدعاء بوليم الثانى ملك صقلية حتى يهاجم الاسكندرية بالأسطول فى نفس الوقت يدخل الصليبيون مصر من ناحية الشرق كما اتصل المتآمرون بالحشيشية الباطنية وقد اتفق المتآمرون على أن يقوم الصليبيون بالهجوم على مصر وفى نفس الوقت يشعلون المتآمرون الثورة فى القاهرة والفسطاط .

وكان من لطف الله بالمسلمين أن المتآمرين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية وقام القاضى باطلاع صلاح الدين على المؤامرة .

وفى نفس الوقت وصل الرسول الذى أرسله عمورى الأول إلى صلاح الدين محملاً بالهدايا وأمر صلاح الدين بعض النصارى وراقبوا الرسول فانكشف أمره لأنه كان على اتصال بالمتآمرين .

وأمر صلاح الدين بالقبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم ، وصل أسطول وليم النورمانى إلى الاسكندرية وأنزل قواته إلى الشاطىء ودمر بعض السفن المصرية ولكن المسلمين أحرقوا بعضاً من سفن وليم النورمانى ملك صقلية وجاء على وجه السرعة صلاح الدين فأغرق بعض سفنهم وأنزل بهم هزيمة قاسية واضطر وليم النورمانى إلى العودة بما تبقى من سفن .

غير أن ثورة أخرى قامت فى أسوان وقام بها أحد الفاطميين واسمه كنز الدولة

وزحف هو ومن معه من الجند السودان إلى قوص ولكن العادل سيف الدين أخو صلاح الدين استطاع القضاء عليهم قضاء مبرماً .

وبذلك استطاع صلاح الدين أن ينتهى من مشاكله الداخلية فى مصر وأن يدعم نفوذه ولم يبق له سوى الصليبيين .

تقوية الوحدة الإسلامية

أصبح صلاح الدين الوارث الحقيقى لدولة نور الدين ولسياسته فى توحيد المسلمين فى الشرق وعمل صلاح الدين على تدعيم الوحدة الإسلامية وفى نفس الوقت لم يهمل الصليبيين .

بعد وفاة نور الدين محمود فى سنة ١١٧٤ أدى ذلك إلى تقسيم الدولة الواسعة بين ورثته وأدى ذلك إلى تهديد الوحدة الإسلامية التى جاهد فى بنائها نور الدين محمود .

وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره وقت وفاة أبيه وتولى الملك الصالح حلب ودمشق أما ابن عم الملك الصالح - سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين مودود بن زنكى - أتابك الموصل لجأ إلى تفتيت الدولة واحتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة .

تنازع الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين كل من الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم والأمير شمس الدين على بن دايه . وأشار القاضى كمال الدين الشهرزورى على الأمراء بالرجوع إلى صلاح الدين وأخذ رأيه وقال لهم « المصلحة أن يشاور « صلاح الدين » فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر » ولكن الأمراء خافوا من تدخل صلاح الدين فى شئون الشام .

ولكن صلاح الدين أرسل إلى الأمراء فى حقه فى الوصاية على الملك الصالح اسماعيل وأملاك نور الدين وقال لهم « لو لم يعجل عليه « نور الدين » الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى » .

ولكن عمورى الأول ملك بيت المقدس استغل ظروف وفاة نور الدين والخلافات التى حدثت وخرج ليستولى على بانياس وخرج إليه الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم على رأس جيش وعرض ابن المقدم مبلغ من المال على عمورى الأول مقابل ترك بانياس ورأى صلاح الدين أن هذا الاتفاق موجه ضده فاستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم وأرسل يقبح لهم ما فعلوه ولكن زادت حدة الانقسامات بين الأمراء وسرعان ما ظهر طرف جديد فى النزاع وهو سعد الدين كمشتكين الخادم وهو أحد أمراء نور الدين وتمكن هذا الأمير من نقل الملك الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب وتمكن سعد الدين كمشتكين من القبض على شمس الدين بن الداية واعتقله وانفرد بتدبير أمور الملك الصالح إسماعيل . وأمام هذا عرض ابن المقدم ومعه الأمراء تسليم دمشق لسيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، ولكنه لم يظهر استعداداً وترخى فى تسلم المدينة الأمر الذى دفع ابن المقدم والأمراء إلى دعوة صلاح الدين إلى تسلم دمشق . وخرج صلاح الدين على رأس سبعمائة فارس إلى بلاد الشام واستخلف على مصر أخاه الملك العادل وأراد بالخروج إلى الشام توحيد المسلمين والقضاء على الفرقة التى ظهرت بعد وفاة نور الدين محمود. وصل صلاح الدين إلى دمشق واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال وبات ليله فى دار أبيه «دار العقيقى » وفى اليوم التالى تسلم القلعة من ابن المقدام وعندما تسلم صلاح الدين القلعة قال : أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه » .

وأخذ صلاح الدين فى تقوية الجبهة الإسلامية حتى يتمكن بعد ذلك من القضاء على الصليبيين .

ولما استقر ملك صلاح الدين لدمشق ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب وسار إلى مدينة حمص وحماة واستطاع ضم كل من حمص وحماة وهو فى كل الأحوال لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ

بلاده عليه من الصليبيين ولما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحاصرها فقاتله أهلها ، وركب الملك الصالح وهو صبى وعنده اثنا عشر سنة وجمع أهل حلب وقال لهم : « قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم . وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى يأخذ بلدى .. » واتفقوا على قتال صلاح الدين وأرادوا قتل صلاح الدين وأرسلوا جماعة من الإسماعيلية فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لأنه كان جارهم فى البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم ، فلما رآهم قال لهم : « ماالذى أقدمكم وفى رأيى شيء جئتم من أجله فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا .

وعندئذ أرسل أمراء حلب إلى أمير طرابلس الصليبى بأن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطروه إلى رفع الحصار عن حلب . وكان ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس يدرك أن وقع حلب فى يد صلاح الدين سوف يؤدى الوحدة الإسلامية فى وجه ، ورأي أن تظل حلب فى يد أمراء بيت نور الدين . ولذلك رأى مهاجمة حمص حتى يتراجع صلاح الدين عن حلب واضطر صلاح الدين إلى العودة لنجدة حمص التى كان قد استولى عليها .

وأما عودة صلاح الدين إلى حمص أمر حاكم حلب بإطلاق سراح أسرى الصليبيين وعلى رأسهم « أرناط » .

وكتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازى ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب أن يعبر إليه ليقصد صلاح الدين ويأخذ البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عن ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لأنه هو

الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعود في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار وجعله المدبر لأمره . وسار سيف الدين إلى سنجار فحاصرها في شهر رمضان وقاتلها وجدّ في القتال وامتنع عماد الدين بها وجدّ في حفظها والدفاع عنها فدام الحصار عليها ، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة .

ثم سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال : لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعودة إلى مصر . وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب .

فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل ، سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا في رمضان بالقرب من مدينة حماة بمكان يقال له « قرون حماة » وكان زلفندار جاهلاً بالحرب والقتال غير عالم بتدبيرها . واستطاع صلاح الدين الانتصار عليهم وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصراً لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب ووصل إلى حماة ووصلت إليه خلع الخليفة ولما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى « بعرين » وهى قريبة منها فحاصرها ، ونصب عليها المنجنيقات فلما ملكها عاد إلى حماة .

غير أن ابن عم الملك الصالح إسماعيل ـ سيف الدين غازى بن مودود ـ أتابك الموصل ـ أرسل يعتب أمراء حلب على الصلح مع صلاح الدين وحرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين وأرسل إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس ، يطلب منه التحالف والمساعدة ضد صلاح الدين كما أطلق سيف الدين غازى أسرى الصليبيين واستطاع سيف الدين غازى جمع القوات من أمراء الجزيرة وديار بكر فى محاولة لاخراج صلاح الدين من دمشق وبلغ عدد قوات سيف الدين غازى إلى عشرين ألف فارس إلا أن صلاح الدين استطاع هزيمتهم هزيمة ساحقة عند « تل السلطان » .

ثم سار صلاح الدين إلى « بزاعة » فحاصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها ، وجعل فيها من يحفظها ، وسار إلى مدينة منبج فحاصرها وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجر وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه فملك صلاح الدين المدينة وبقى القلعة وبها صاحبها فحاصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقابون إلى السور فنقبوها وأخذ صاحبها أسيراً ثم سار صلاح الدين إلى « إعزاز » وهى أحصن القلاع وأمنعها فحاصرها ثمانية وثلاثين يوماً فأذعن من بها ثم تسلمها .

وأراد الباطنية قتل صلاح الدين وتسلل أحد الباطنية إلى خيمة أحد الأمراء وكان موجوداً بها صلاح الدين وحاول قتل صلاح الدين وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه وجاء أمير من أمرائه اسمه « يازكش » فأمسك السكين بكفه ، فجرحه الباطنى ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطنى وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضاً وثالث فقتل وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور وقصد صلاح الدين بلاد الإسماعيلية سنة ٥٧٢هـ وهم الذين أرادوا قتله فنهب بلدهم وخربها وأحرقها وحاصر قلعة معيات وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم ، فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها وأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين

الحارمى ، صاحب حماة وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يتدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له : إن لم تفعل قتلناك ، وجميع أهل صلاح الدين ، فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم ، فأجابه إلى ذلك ، وصالحهم ، ورحل عنهم .

وفى نفس الوقت أراد الصليبيون مهاجمة صلاح الدين فى أعقاب الانتصار فى تل السلطان سنة ١١٧٦ ولذلك أغار بلدوين الرابع ومعه ريموند الثالث على «البقاع » ولكن شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن وقد لقيهم عند عين الجر فأوقع بهم الهزيمة وبذلك نجح صلاح الدين فى مقاومة ثلاث قوى تحالفت ضده وهو يحاول تحقيق الوحدة الإسلامية والقوى الثلاث هى الزنكيين والباطنية والصليبيين .

عودة صلاح الدين إلى مصر

عاد صلاح الدين إلى مصر فى سنة ١١٧٦ ولكن صلاح الدين عمل على تقوية القاهرة وتحصينها ورأى صلاح الدين أن فى بلاد الشام وكل مدينة وبلدة لها قلعتها المحكمة القوية التى تصد وتصمد فى وجه الأعداء وكان من الطبيعى أن يعمل على إنشاء قلعة فى القاهرة تصبح مركزاً للدفاع عن البلاد وشرع صلاح الدين فى بناء القلعة فور عودته فى أواخر سنة ١١٧٦ وقد اختار لها موقع ممتاز على جبل المقطم وهى تقع فى مكان استراتيجى بحيث تستطيع الاشراف على القاهرة ويمكنها صد أى عدوان داخلى أو خارجى وجعل صلاح الدين بداخلها البئر بحيث يكون هناك مورداً ثابتاً للمياه فى حالة دفع أى خطر وأحاط القلعة بخندق عميق وجعلها حصن حصين المنعة ولكن صلاح الدين رأى أن يحيط القاهرة بسور عظيم استخدم فى بنائه الحجر الجيرى من منطقة الأهرامات وقد عهد إلى بهاء الدين قراقوش فى تلك الأعمال التحصينية والتى استمرت سنوات طويلة وكان آخرها بناء حائط كبير خارج القاهرة على طريق الاسكندرية الصحراوى وذلك بقصد حماية العاصمة من أى هجوم صليبى عن طريق الاسكندرية وأمام الاستعداد لأى هجوم قد يحدث على مصر سافر صلاح الدين إلى دمياط والاسكندرية سنة ١١٧٧ وتفقد حالة الأسطول وأمر باصلاح السفن .

صلاح الدين يهاجم مملكة بيت المقدس

اتجه صلاح الدين بعد أن أمر بالتحصينات على مصر والاشراف عليها إلى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس فى الوقت الذى كان جيش المملكة موجوداً فى شمال الشام وغادر صلاح الدين العريش بعد ذلك للهجوم على المراكز الصليبية على شاطىء فلسطين مثل الداروم وغزة ثم اتجه إلى عسقلان ولكن الملك بلدوين الرابع جمع الرجال وكل القادرين على حمل السلاح ودخل عسقلان ولكن صلاح الدين حاصره هو وقواته داخل المدينة وأخذ صلاح الدين يغير على المدن والمعاقل الصليبية حتى وصل إلى أرسوف ونابلس .

وفى ذلك الوقت اهتم المسلمون بجمع الغنائم وأصبحوا آمنين مطمئنين واستطاع بلدوين الرابع أن يخرج من عسقلان وجمع حاميات المدن الصليبية القريبة وداهموا قوات صلاح الدين وحلت الهزيمة بالمسلمين عند تل الصافية واستطاع صلاح الدين النجاة بصعوبة وعاد إلى مصر فى ديسمبر ١١٧٧ وأخذ بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فى مطاردة من تبقى من القوات الإسلامية حتى عسقلان ثم عاد إلى بيت المقدس . وأدى هذا إلى الانتصار وأعادت ثقة الصليبيين فى أنفسهم فأخذوا يهاجمون المسلمين فى شمال الشام فنهبوا القرى وأحرقوها وخربوها وفى جنوب الشام شيدوا قلعة جديدة قرب بانياس بمكان تعرف بمخاضة الأحزان وتمتعت هذه القلعة بأهمية كبرى لوقوعها على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى .

وعاد صلاح الدين إلى الشام من جديد سنة ١١٧٨ وأدرك خطر هذا الحصن

« حصن بين الأحزان » وطلب من الصليبيين هدمه ولكنهم طلبوا نفقات بنائه فعرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار على أن يهدموا الحصن ثم زادها إلى مائة ألف دينار ولكنهم رفضوا ذلك ـ وقد حدث أن اشتبك الصليبيون بقيادة بلدوين الرابع وهمفرى صاحب حصن بانياس مع المسلمين بقيادة عز الدين فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين وخرج صلاح الدين لمساعدة ابن أخيه وانتصر على الصليبيين وقتل همفرى وكان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وعاد صلاح الدين بالغنائم والأسرى .

وأرسل صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة خوفاً من اعتداء بوهيموند الثالث أمير انطاكية ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حمص ليدفع عنها ضد ريموند الثالث أمير طرابلس .

وخرج بلدوين الرابع إلى قتال صلاح الدين ودارت موقعة قرب تل القاضى فى سهل مرج العيون وانتصر صلاح الدين انتصاراً حاسماً فى ١٠ يونية سنة ١١٧٩ .

وعمد صلاح الدين إلى نقب حصن بيت الأحزان فى سنة ١١٧٩ واستطاع أسر من فيه وأطلق أسرى المسلمين وهدم الحصن وكان الصليبيون قد اجتمعوا فى طبرية ليحموا الحصن ، فلما أتاهم الخبر فقدوا أعصابهم فتفرقوا إلى بلادهم .

وأخذ صلاح الدين بعد هدم حصن الأحزان بالاغارة على صور وصيدا وبيروت واستطاع أسطول صلاح الدين أن يخرج من مصر ليهاجم عكا .

وأدت هذه الانتصارات المتلاحقة إلى طلب الملك بلدوين الرابع إلى عقد هدنة وتم الاتفاق على الهدنة فى مايو سنة ١١٨٠ وأدى ذلك إلى طلب ريموند الثالث أمير طرابلس عقد هدنة مع صلاح الدين .

وأسرع صلاح الدين إلى مصر ليستغل مدة الهدنة فى تحصين مصر فى يناير سنة ١١٨١ ولم يكد صلاح الدين يعلم بتحركات أرناط صاحب حصن الكرك فى

البحر الأحمر والاعتداءات التى قامت بها السفن الصليبية على شواطىء مصر الشمالية حتى أمر باستكمال الإنشاءات والتحصينات الدفاعية وقد أمر بترميم سور دمياط وأمر بإصلاح السلاسل الحديدية التى كانت تسد مدخل النيل من ناحية دمياط وبلغ صلاح الدين فى الانفاق على تحصين دمياط حتى أنه أنفق على تحصين دمياط ألف ألف دينار وذلك ما يذكره المقريزى . وقد اهتم أيضاً بتحصين الإسكندرية وأمر صلاح الدين بكسر أربعمائة عامود كانت محيطة بعامود السوارى وإلقائها فى البحر لتسد الطريق فى وجه السفن التى تحاول الاغارة على الاسكندرية واهتم أكثر الاهتمام بالجيش وأنفق عليه الكثير من الأموال .

أرنــــــاط

ريلو دى شاتيون « ريجنالد » الذى عرفه العرب باسم أرناط كان فارساً فرنسياً مغموراً وقع فى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ وظل فى الأسر ستة عشر سنة وخرج من الأسر سنة ١١٧٧ وأحبته الأميرة كونستانس الوصية على أمارة انطاكية وتزوجته . وكان أرناط صاحب سياسة ذات طابع حماسى متطرف .

غير أن أرناط شرع فى الزحف إلى المدينة المنورة وأراد الاستيلاء على النواحى الشريفة ولكن فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق أسرع إلى غزو الأردن حتى يجعل أرناط يعود للدفاع عنها .

ولكن أرناط عندما علم بأن هناك قافلة عظيمة الأموال كثيرة الرجال غدر بهم أرناط وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع الأسرى السجون فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ، يقبح فعله وغدره ويأمره بأن يسرع برد كل ما استولى عليه من أموال وأسرى ولكن أرناط أعلن أنه لن يرد شيئاً من أسرى المسلمين وأموالهم . فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به . وفى نفس الوقت قذفت أمواج البحر ببضعة سفن مسيحية كانت فى طريقها إلى بيت المقدس فغرق منهم من غرق ووجد الباقون وعددهم نحو ألف وستمائة وتسعين نفساً ـ أنفسهم على شاطىء دمياط وأعلن صلاح الدين أنه لن يطلق سراح أولئك الحجاج إلا إذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين وأراد صلاح الدين الاطمئنان على الوحدة الإسلامية قبل القيام بحركة الجهاد شاملة ضد الصليبيين وقد حدثت بعض التطورات فى الموصل وحلب سنة ١١٨٠ ـ ١١٨١ حيث أن سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل توفى سنة ١١٨٠ ، ثم توفى الصالح نور الدين إسماعيل بن محمود أتابك حلب فى سنة ١١٨١ . وقد أدى خوف أمراء الموصل من صلاح

الدين إلى حرمان أبناء سيف الدين غازى من ملك أبيهم واستدعى أمراء الموصل عز الدين مسعود الأول أخا سيف الدين ـ لتولى أتابكية الموصل وأوصى الصالح إسماعيل وهو على فراش الموت أن يخلفه ابن عمه الأمير عز الدين مسعود فى حلب .

وبذلك نودى بعز الدين مسعود ملكاً على حلب سنة ١١٨١ . وقد أدرك صلاح الدين أن هذه الأوضاع من شأنها أن تكون عقبة فى طريق حركة الجهاد الشاملة التى أراد القيام بها ضد الصليبيين . حيث أن أمراء حلب دخلوا فى مفاوضات مع الصليبيين وأرادوا التحالف ضد صلاح الدين لذلك أراد صلاح الدين توحيد القوى الإسلامية قبل القيام بحركة الجهاد الشاملة ضد الصليبيين واتجه صلاح الدين إلى حلب ومكث بها ثلاثة أيام ثم اتجه إلى الموصل فاستولى على الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين وأراد حصار الموصل ولكن عز الدين صاحب الموصل قد أعد عدته للحصار وحشد أعداداً ضخمة من العسكر وأراد صلاح الدين أن يستولى على الموصل عن طريق السياسية فعرض على عز الدين مسعود الصلح على أن يتركه يستولى على حلب دون تدخل منه ولكن عز الدين مسعود رفض وقال « هو أخى وله العهود والمواثيق ، ولا يسعنى أن أنكثها » .

وكان قد وصل إلى سمع صلاح الدين أن ملك بيت المقدس استقبل سفارة من الموصل تعرض عليه الجزية السنوية وقدرها عشرون ألف دينار ، وتسليم بانياس وحبيس جلدك للصليبيين وإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين إذا نجح الصليبيون من طرد صلاح الدين من دمشق .

ولكن صلاح الدين ترك حصار الموصل ليبدأ فى حصار حلب وكان عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب أقل شجاعة ودهاء من أخيه عز الدين مسعود .

وأرسل عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه ترك حلب مقابل إعطائه سنجار فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وزاده الخابور

ونصيبين والرقة وسروج وبذلك استطاع صلاح الدين الاستيلاء على حلب سنة ١١٨٣ كما استسلمت حماية حارم التابعة لحلب وبعد الاستيلاء على حلب أصبح صلاح الدين يسيطر على الجبهة الإسلامية والتى تمتد من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوباً وأدى ذلك إلى خوف أمارة أنطاكية وبادر أميرها باسترضاء صلاح الدين وأرسل إليه جماعة من أسرى المسلمين وبذلك استطاع صلاح الدين أن يجمع فى قبضته القوية كل من القاهرة ودمشق وحلب وأصبح لا يوجد عدو خطير يخشى تهديده إذا هو هاجم الصليبيين .

صلاح الدين يمهد
للجهاد الأكبر

غادر صلاح الدين مصر إلى الشام سنة ١١٨٢ وقد اتجه إلى أيلة على خليج العقبة وسمع أن الصليبيين قد جمعوا الحشود فى حصن الكرك ليمنعوا دخوله إلى الشام وفى نفس الوقت اتجه صلاح الدين من أيلة إلى إقليم الشوبك . أثناء ذلك انتهز فرخشاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه على دمشق خروج الجيوش الصليبية إلى الكرك وأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنوب وأسر الرجال وغنم الأموال ففرح المسلمون بفتح الشقيف أرنوب فرحاً عظيماً وأرسل فرخشاه البشارة إلى صلاح الدين ، فلقيه فى الطريق وشرع الاثنان فى مهاجمة حصن كوكب الذى يشرف على إقليم الغور والطريق المؤدى إلى الناصرة واشتد القتال بين الصليبيين وصلاح الدين وكان النصر للمسلمين .

ثم سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت وكان قد أمر الأسطول المصرى بالمجىء فى البحر إليها وكان الأسطول مكون من ثلاثين سفينة و فى نفس الوقت هجم صلاح الدين على بيروت من ناحية البر وبذلك تعرضت بيروت لحصار من البر والبحر ولكنها أظهرت عناداً شديداً ، وأمر بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بإعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار أمام عناد المدينة أمر صلاح الدين بعودة الأسطول إلى مصر وكان الأسطول قد أسر من المدينة الكثير وغنم منها .

واتجه صلاح الدين إلى نهر الأردن فعبره واستولى على بيسان وكان المرض قد تمكن من بلدوين الرابع ملك بيت المقدس حتى أصبح عاجزاً عن الحركة وفوض

الملك صهره جاى لوزجنان فى تدبير أمور المملكة . اتجه جاى لوزجنان على رأس جيش المملكة لمواجهة المسلمين وعسكر عند الفولة وهى قرية قريبة من عين جالوت بفلسطين وعندما رأى الصليبيون ضخامة جيش صلاح الدين رحلوا عائدين إلى مركزهم فى صفورية دون أن يجرأوا على مواجهة المسلمين وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن خرب حصون بيسان وكفر بلاوزرعين .

صاحب حصن الكرك

أراد أرناط صاحب حصن الكرك أن يضرب الإسلام فى مقتل وذلك بغزو الحرمين وتدمير مكة والمدينة وكان أرناط قد استولى على أيلة على خليج العقبة وأمر أرناط ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها على ظهور الجمال مفككة حتى خليج العقبة حيث ركبت واستطاع أرناط الاستيلاء على جزيرة القلعة « جزيرة فرعون » وجه بعض السفن إلى البحر الأحمر للاغارة على الموانىء المصرية على البحر الأحمر وقد أغار أرناط على الميناء الشهير عيذاب ونهب الصليبيون الكثير من السفن التجارية التى كانت وافدة من اليمن وجدة وعدن والهند وأحرقوا ستة عشر مركباً وأخذوا مركباً يأتى بالحجاج من جدة وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا قافلة كبيرة من الحجاج وانتقل الصليبيون إلى شاطىء الحجاز وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة وأغاروا على القوافل .

وأراد أرناط بذلك أن يضرب المسلمين فى قبلتهم وأن يحتكر تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى بعد السيطرة على أيلة وعدن وأدى ذلك إلى أن أمر صلاح الدين أخيه العادل فى مصر بأن يعد أسطولاً قوياً بقيادة حسام الدين لؤلؤ وقد بدأ الأسطول المصرى بحصار أيلة فحرق مراكب الصليبيين وأسر من فيها ثم اتجه إلى بقية السفن الصليبية وكانت أغلبها موجوداً على شاطىء الحوراء ودمرها وأطلق منها أسرى المسلمين .

وعاد حسام الدين لؤلؤ متولى الأسطول بديار مصر ومعه الأسرى الصليبيين إلى مصر وقد أمر صلاح الدين بقتل جميع الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يحاول الاعتداء على الحرمين الشريفين وكان حصن الكرك عظيم الخطر بحيث يقطع

الطريق على القوافل التى تقصد مصر لذلك خرج صلاح الدين من دمشق بحصار حصن الكرك وجاء إليه من مصر أخوه العادل لمساعدته سنة ١١٨٣ ولكن صلاح الدين لم يستطع أن ينال منه شيء لقوة تحصينه وكما أن الملك بلدوين الرابع خرج لنجدة حصن الكرك .

ولكن عاد صلاح الدين وخرج مرة أخرى سنة ١١٨٤ لمحاصرة حصن الكرك ومعه ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر على رأس الجيش المصرى وأحضر المنجنيقات وآلات الحصار واشتد القتال وملك المسلمين الأمر ولكن جيش مملكة بيت المقدس أسرع لنجدة الكرك للمرة الثانية مما أفسدالأمر على صلاح الدين الذى اضطر إلى الانسحاب وسار إلى مدينة نابلس فأحرقها وخربها وقتل من بها وأسر الكثير ورحل عنها إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ومنح الأمان لأهل سبسطية اكراماً لمشهد زكريا عليه السلام ورحل إلى جينين فخربها وأحرق قلعة جينين .

انشقاق في صفوف الصليبيين

ولكن سرعان ما بدأت تسوء أحوال مملكة بيت المقدس فى أواخر أيام ملكها بلدوين الرابع ولم يلبث الملك أن يبعد جاى لوزجنان عن الوصاية على المملكة كما عين بلدوين الخامس شريكاً له فى حكم المملكة ووريثاً للعرش الأمر الذى جعل جاى لوزجنان يعتصم فى يافا وعسقلان ويعلن ثورته على الملك بلدوين الرابع وأعلن بلدوين الرابع عزل جاى لوزجنان ثم اختيار ريموند الثالث وصياً على العرش وأعلن بلدوين الخامس ملكاً تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس وعقد ريموند الثالث هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات سنة ١١٨٥ وبعد بضعة أشهر من إعلان بلدوين الخامس ملكاً توفى وأدى ذلك إلى الصراع على العرش بين الأمراء ولكن سرعان ما سيطر جاى لوزجنان وزوجته الأميرة سيبل على بيت المقدس والموانى وذلك بمساعدة هرقل بطريق بيت المقدس وأرناط صاحب حصن الكرك أما ريموند الثالث سرعان ما انفض عنه الأمراء ولكن ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند أمير أنطاكية أصرا على موقفهما العدائى من جاى لوزجنان .

وأرسل ريموند إلى صلاح الدين يطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً وأدى ذلك إلى تفرق شمل الصليبيين .

موقعة حطين

أراد أرناط صاحب الكرك أن يخرق الهدنة مع صلاح الدين فى ظروف صعبة كان يمر بها الصليبيون على أثر الانقسام الخطير بين أمرائهم واستغل أرناط موقع حصن الكرك فى الأردن فى الأعمال العدوانية على المسلمين وقوافلهم الذين كانوا ينزلون فى المناطق الصحراوية القريبة من حصن الكرك على الرغم من الهدنة بين صلاح الدين وأرناط إلا أن صاحب الكرك نجح فى نصب كمين للقافلة كانت تحمل الكثير من النفائس وثروة طائلة متجهة من القاهرة إلى دمشق سنة ١١٨٦ وقد سلب كل شيء ووضع الأسرى فى حصن الكرك ولكن صلاح الدين أرسل إلى الفارس اللص أرناط مقبحاً عمله وطلب منه أن يطلق الأسرى والأموال ولكن أرناط رفض ذلك وأرسل صلاح الدين إلى الملك جاى لوزجنان كى يأمر أرناط برد الأسرى والأموال ولكن أرناط صاحب حصن الكرك رفض طلب ملك بيت المقدس وهكذا تلاشى ما كان لملك بيت المقدس من نفوذ وهيبة فى أعقاب جلوس جاى لوزجنان على عرش بيت المقدس بحيث لم يستطع إجبار أرناط على رد الأسرى والأموال ولم يبق أمام صلاح الدين إلا خيار واحد وهو الحرب وقد اختار صاحب حصن الكرك أسوأ الأوقات بالنسبة للصليبيين وذلك نتيجة الانشقاق الذى حدث داخل الصليبيين بعد عقد ريموند الثالث أمير طرابلس الهدنة مع صلاح الدين ، وكذلك عقد الهدنة أمير انطاكية بوهيموند الثالث مع صلاح الدين .

وتعتبر طرابلس وانطاكية أقوى إمارتين صليبيتين فى الشام وأخذ صلاح الدين يرتب الأمور ويعمل على تعبئة القوى الإسلامية استعداداً لمعركة الجهاد الكبرى واتجه صلاح الدين على رأس جيش كبير فى منتصف مارس سنة ١١٨٧ نحو الجنوب حتى وصل إلى رأس الماء حيث ترك الأفضل ابنه واتجه صلاح الدين إلى

بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين خوفاً عليهم من غدر أرناط وكان فى هذه القافلة إحدى أخوات صلاح الدين وابنها وبعد أن فرغ من تأمين القافلة وسلامتها اتجه إلى الكرك فى جيش من اثنى عشر ألف فارس وأراد أرناط قطع الطريق على القوات الآتية من مصر وصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين ولكن صلاح الدين تقدم إلى الأمام والتقى بالقوات الآتية من مصر ووجد أرناط نفسه محصوراً فى قلعة الكرك وفى نفس الوقت كان الأفضل لا يزال عند رأس الماء يتولى أمر القوات الإسلامية التى أخذت تتوافد عليه من مصر وأراد صلاح الدين أن يتفرغ إلى أرناط وأرسل إلى رجاله فى حلب يأمرهم بعقد هدنة مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وفى نفس الوقت أدى ذلك الخلاف بين جاى لوزجنان وكل من أمير طرابلس وأمير أنطاكية إلى الصدام المسلح حيث جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه الموجودة فى الناصرة لمهاجمة طبرية التى كان يمتلكها أمير طرابلس ولكن أمراء الصليبيين حثوا جاى لوزجنان على توجيه قواته إلى صلاح الدين والمسلمين وإرسال مبعوث إلى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين وأرسل صلاح الدين قوة بقيادة مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب حران والرها وقايماز النجمى ودلدرم الياقوتى وهما من أكابر الأمراء فساروا ليلاً حتى تصدى لهم مقدم الداوية قرب صفورية وهناك دارت معركة رهيبة سقط فيها معظم الصليبيين وكان ضمن القتلى مقدم الاسبتارية ومعه فرسان الصليبيين المشهورين وعادوا المسلمون سالمين غانمين .

ولكن الصليبيين أرادوا تنظيم أنفسهم ودخل أمير طرابلس فى طاعة الملك جاى لوزجنان ورأى أن من الحكمة أن يسير لمحاربة المسلمين بدلاً من التفرق ولكن صلاح الدين زحف إلى طبرية وأحرق المدينة فيما عدا القلعة التى لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها وكانت بها أميرة طرابلس زوجة ريموند الثالث .

وكان الصليبيون قد اجتمعوا عند صفورية ولكن صلاح الدين صاحب المهارة العسكرية أراد أن يجبرهم على ترك صفورية ولذلك أمر صلاح الدين بمهاجمة طبرية لكى يدفع الصليبيين إلى ترك مراكزهم عند صفورية وأن يجبرهم على الزحف إليه ورأى ريموند الثالث خطورة الأمر لصعوبة الطريق وقلة الماء على الرغم من وجود زوجته فى قلعة طبرية وقال « لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهاليهم فيضطر إلى تركها . فقال أرناط صاحب الكرك : « قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك أنهك كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون ، فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم .

وهكذا بدأ الجيش الصليبى فى التحرك فى شهر يولية سنة ١١٨٧ وكانت الظروف سيئة حيث سار الجنود مكرهين إضافة إلى ذلك حرارة الجو القاسية وصعوبة الطريق وطوله أيضاً . ونفس الوقت كان المسلمون ينعمون بالماء ينتظرون قرب طبرية مع قائدهم صلاح الدين صاحب الدهاء العسكرى وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تقدم إلى قرية حطين وعندما وصل الصليبيون سطح جبل طبرية وهى منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمائة متر كانوا فى شدة العطش والتعب وأمر الملك جاى لوزجنان أن يقضى الصليبيون ليلتهم فوق الهضبة .

وحاول بعض الصليبيين الوصول إلى الماء ولكن المسلمين حالوا بينهم وبين

الماء وكان المسلمون قد أشعلوا النار فى الأعشاب التى كانت كثيفة على الهضبة فاحترقت وحملت الريح حر النار والدخان إليهم فاجتمع العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال .

وكان صلاح الدين قد استغل الليل ليحيط بهم وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ وبدأ المسلمون الهجوم على الصليبيين الذين كانوا فى ظروف غاية فى الصعوبة وشدد المسلمون على هجماتهم ضد الأعداء والصليبيين تعذر عليهم الوقف فى وجه صلاح الدين ورجاله على أثر العطش والتعب والارهاق ولكن ريموند أمير طرابلس فر هارباً تجاه صور أما ما تبقى من الصليبيين فقد آووا إلى جبل حطين ليعصمهم من البلاء فأحاط المسلمون بالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل والصليبيون يتراجعون وبقى الملك على التل فى مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان .

وكثر الأسرى والقتل فيهم فمن كان يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً وكان ضمن الأسرى الملك جاى لوزجنان وأخوه وأرناط صاحب حصن الكرك وصاحب جبيل وابن هنفرى مقدم الداوية جيرار دى ريد فورت وأسروا أيضاً جماعة من الداوية وجماعة من الإسبتارية .

ولما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته وأحضر ملك بيت المقدس عنده وأرناط صاحب الكرك وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلجاً ، فشرب وأعطى ما تبقى لأرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمان ، ثم التفت إلى أرناط وعدد ذنوبه وعدد مرات الغدر وقال له : كم تحلف وتنكث فرد أرناط : قد جرت بذلك عادة الملوك وعندئذ أمسك صلاح الدين بسيفه وأطاح برأس أرناط وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً ، وارتعدت فرائض الملك جاى لوزجنان ولكن

صلاح الدين هدأ من روعه وقال له « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى » وكان صاحب طرابلس قد فر من المعركة ووصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً على ما جرى للصليبيين وأمر صلاح الدين بحبس الأمراء فى دمشق وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق .

استرداد بيت المقدس

أدت معركة حطين إلى نقص فى عدد فرسان الصليبيين بعد أن سقطوا بين أسير وقتيل وأيضاً أسر جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وضياع هيبته .

وشرع صلاح الدين فى فتح البلاد والمدن الصليبية وفى اليوم التالى من معركة حطين يوم الأحد عاد إلى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك وأدى اعتدال صلاح الدين والبعد عن التطرف فى معاملة الأسرى وتمسكه بالتسامح والرحمة إلى الاستيلاء على الكثير من المدن الصليبية سواء الساحلية أو الداخلية . ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكا يوم الأربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ وطلب حاكم عكا ـ جوسلين الثالث دى كورتنارى الأمان على أنفسهم وأموالهم فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم وقد غنم المسلمون من عكا غنائم كثيرة من الذهب والجواهر والسلاح والكثير من أنواع الأمتعة لأن عكا كانت مقصد التجار من أقصى البلاد وأدناها .

وأراد صلاح الدين الاستيلاء على عكا وأن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالغرب الأوربى وهى أحد مظاهر دهائه العسكرى بحيث يصبح الصليبيون محاصرون داخل بلاد الشام وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وترك مدينة عكا لابنه الأفضل ، وقد أدّوا صلاة الجمعة فى مسجد كان للمسلمين قديماً .

ولما هزم صلاح الدين الصليبيين أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى الصليبيين من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر فنازل

المدن الساحلية فى فلسطين ، فاستولى على حصن مجدل يابا بين يافا ونابلس ثم سار إلى مدينة يافا وهى على الساحل فحاصرها وملكها عنوة .. وجه صلاح الدين وهو بعكا عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة فاستولوا عليها وأسروا رجالها وكذلك وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين عمر ابن لاجين فى عسكر إلى نابلس فاستولى على سبسطية ووصل إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها .

وكان صلاح الدين قد بعث تقى الدين إلى تبنين فرأى تقى الدين أن حصارها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه فأرسل إليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه وكانت تبنين من القلاع المنيعة على الجبل فلما حاصرها صلاح الدين ضاق عليهم الأمر واشتد الحصار أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل وسمح صلاح الدين لحاميتها بالخروج من القلعة فى أمان .

ولما فرغ صلاح الدين من تبنين رحل إلى صيدا فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه تركها وتسلمها صلاح الدين ساعة وصوله . أما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فتحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم صلاح الدين على أنفسهم وأموالهم سنة ١١٨٧ ثم اتجه إلى جبيل وكان صاحبها عرض تسليم جبيل على نائب صلاح الدين بدمشق بشرط إطلاق سراحه لأنه قد أسر فى طبرية فعرف صلاح الدين فأحضره مقيداً حيث أمر الحامية بالتسليم ، فاستولى عليها صلاح الدين .

لما فرغ صلاح الدين من بيروت وجبيل اختار أن يستولى على عسقلان واجتمع مع أخيه العادل ومن معه من عساكر مصر لما رأى إصرار حامية عسقلان على المقاومة وقوة تحصين عسقلان أحضر ملك الصليبيين جاى لوزجنان ومقدم الداوية دى مونتفورت من دمشق وقال لهما : إن سلمتما البلاد إلىّ فلكما الأمان ولكن أهل عسقلان رفضوا التسليم وردوا عليهما أقبح رد واستمر أهل عسقلان فى المقاومة حتى طلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأموالهم .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أمر بيت المقدس الذى عرض على أهل بيت المقدس تسليمه مقابل الأمان على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ولكن أهل بيت المقدس رفضوا وعلى رأسهم الأمير باليان الثانى دى ابلين « ابن بارزان » ورأوا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس .

وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن المدينة فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد إلا موضع جهة الشمال عند باب عمرو واستطاع المسلمون الوصول إلى سور المدينة ونقبوه ورأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وإنهم أشرفوا على الهلاك فاتفقوا على طلب الأمان ولكن صلاح الدين امتنع عن إجابتهم وقال : « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها » ولكن باليان الثانى طلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب فى الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه ، فلما يأس من ذلك قال باليان دى ابلين لصلاح الدين « أيها السلطان أعلم إننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من الموضع ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، لا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً » .

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان مقابل عشرة

دنانير للرجل يستوى فيه الغنى والفقير وخمسة دنانير للمرأة وديناريين للطفل فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه صار مملوكاً . وأطلق باليان دى ايلين ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء دفع عنهم ثلاثين ألف دينار وباع الصليبيون أمتعتهم بأرخص الأثمان وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وهو ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلاً نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وقد جعل صلاح الدين على كل باب من أبواب المدينة أميناً من الأمراء ليجمعوا من الخارجين منه المال المقدر عليهم وكانت زوجة الملك جاى لوزجنان فى بيت المقدس فسمح لها صلاح الدين بالذهاب إلى زوجها الأسير فى نابلس وكما طلبت أرملة أرناط صاحب الكرك من صلاح الدين إطلاق سراح ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين : إن سلمت الكرك أطلقته ، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون فلم يطلق صلاح الدين ولدها إلا بعد أن استولى العادل على الكرك سنة ١١٨٨ وهذا السلوك الطيب من جانب صلاح الدين الذى أمر أن يخرج كل الصليبيين ومعهم أموالهم ولم يتعرض لأحد حتى أن هرقل بطرق بيت المقدس غادر المدينة ومعه الكثير من الذهب والفضة وخلفه العربات تحمل الكثير من النفائس فقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وهذا يختلف عن سلوك الصليبيين عندما استولوا على المدينة سنة ١٠٩٩ فذبحوا الكثير من المسلمين حتى يقول ابن العبرى وهو مؤرخ مسيحى « قتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً » .

وأمر صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى وأمر أن يعمل له منبر فقيل له أن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه فأمر صلاح الدين بإحضاره .

فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على

عشرين سنة ولما كانت الجمعة ٩ اكتوبر (رابع شعبان) صلى المسلمون الجمعة ومنهم صلاح الدين فى قبة الصخرة وأمر بعمارة المسجد الأقصى باستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فأحضروا الرخام وشرعوا فى عمارته وأمر بنقل المصاحف إليه ورتب القراء .

أراد صلاح الدين بعد ذلك إخضاع كل من صور وطرابلس وأنطاكية إضافة إلى القلاع الداخلية التابعة لهم ولكن صلاح الدين رأى أن أمر صور قد يطول فرحل عنها ويقول ابن الأثير « فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملّوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فقد جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك - كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور » .

ولما فتح صلاح الدين تبنين أقنع من بهونين من تسليمها وهى من أحصن القلاع وأمنعها واستطاع الاستيلاء على قلعة هونين وفى نفس الوقت أرسل صلاح الدين فرقة من العسكر إلى قلعة صفد فحاصرها وهى مطلة على مدينة طبرية وكان حصن صفد للداوية وحصن كوكب للاسبتارية وهما قريبان من حطين فاستسلمت صفد فى أواخر سنة ١١٨٨ وكوكب فى أوائل سنة ١١٨٩ .

ثم استولى على بانياس وبعدها جبلة فى يوليو سنة ١١٨٨ ثم سار إلى اللاذقية فترك الصليبيون المدينة لعجزهم عن حفظها ثم رحل صلاح الدين عن اللاذقية وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة فقاوم الحصن مقاومة عنيفة ثم استسلم فى النهاية ثم سقطت القلاع التابعة لحصن صهيون مثل حصن بلاطنس وحصن العيد وحصن الجماهرتين ثم سار صلاح الدين إلى قلعة بكاس وملك القلعة بغير قتال وتقدم إلى قلعة الشغر وتمكن من قلعة الشغر ثم سار ابنه الظاهر إلى سرمينية

فحاصرها وسقطت فى يده ، ثم رحل صلاح الدين من قلعة الشغر إلى قلعة برزية واستولى عليها ولما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه وسار إلى قلعة دربساك وهى من معاقل الداوية الحصينة واستطاع صلاح فتح القلعة فى التاسع عشر من رجب سنة ٥٨٤هـ ثم اتجه صلاح الدين إلى قلعة بغراس فحاصرها فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أموالهم وأرواحهم وتوجه صلاح الدين إلى أنطاكية بعد فتح بغراس وحاصرها فخاف البيمند صاحب أنطاكية وأرسل يطلب الهدنة فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر وكانت الهدنة حتى يستريح الجنود بعض الشىء الأمر الذى افتقده منذ حطين .

فى تلك الأثناء كان العسكر قد حصروا الكرك مدة طويلة حتى نفذت ذخائر الصليبيين وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، فراسلوا الملك العادل أخو صلاح الدين يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وتسلم الملك العادل أيضاً حصن الشوبك . وبعد ذلك اتجه إلى حصن الشقيف الذى سلمه لصلاح الدين رينو صاحب صيدا وذلك بشرط أن يعطى صلاح الدين له موضعاً يسكنه فى دمشق .

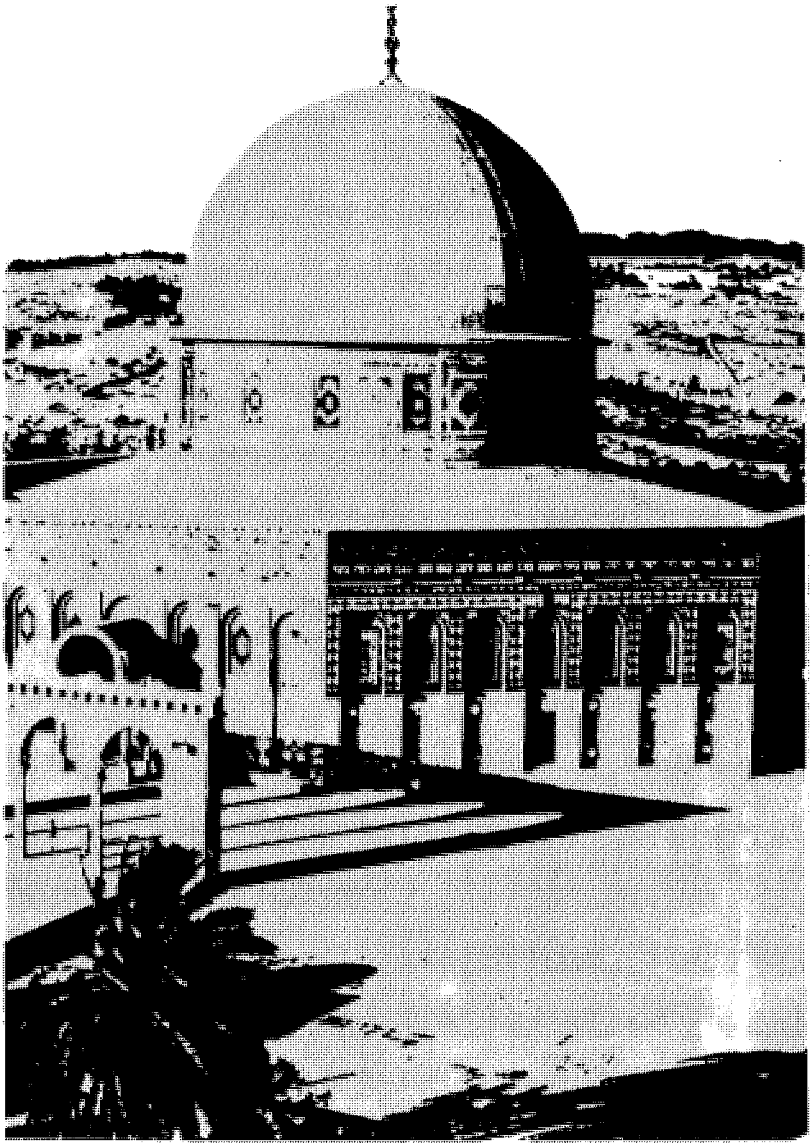
أدى كرم وتسامح صلاح الدين مع الصليبيين والاعتدال والبعد عن التطرف والعنف معهم ومنح الكثير من أهالى المدن الصليبية الحرية وأدى إلى تجمع هؤلاء فى صور التى صار أمرها عسيراً على صلاح الدين . إضافة إلى حصانة صور الطبيعية .

كونراد دى مونتفرات

كان كونراد دى مونتفرات « المركيس » قد وصل إلى عكا سنة ١١٨٣ قادماً من غرب أوربا وفوجىء عند رأى المسلمين يحكمون عكا فرحب أهل صور بالأمير كونراد دى مونتفرات والذى أخذ يدعم تحصينات صور ، وصل كونراد دى مونتفرات فى ذلك الوقت وبعث فى الصليبيين الأمل من جديد بعد أن كانوا يفتقدون إلى قائد عظيم ذو رأى وبأس شديد وهكذا استعصى أمر صور على صلاح الدين بعد أن أعلن أمراء الصليبيين وفرسانهم ولائهم « كونراد دى مونتفرات » وأراد صلاح الدين أن يرغم المركيس كما يطلق عليه العرب على تسليم المدينة مقابل إطلاق سراح والد كونراد الذى كان أسيراً لدى صلاح الدين ولكن كونراد دى مونتفرات رفض هذا العرض وقال أنه يفضل أن يذبح هو وأبوه عن أن يسلم المدينة لصلاح الدين .

وأخذ المركيس فى بناء سور المدينة وحفر خندق حول المدينة تجرى فيه مياه البحر فأصبحت المدينة كالجزيزة فى وسط الماء وبذلك زاد من تحصين المدينة وهى التى يضرب بها المثل فى الحصانة .

وقد اتجه صلاح الدين إلى صور ومعه ولداه الأفضل والظاهر وأخوه العادل وابن أخيه تقى الدين عمر ولكن على الرغم من كثرة جيش صلاح الدين وإحضاره عشر سفن من الأسطول المصرى إلا أنه فشل فى حصار صور بعد إجراءات كونراد دى مونتفرات الدفاعية التى جعلت صور حصناً منيعاً واضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن المدينة ويعتبر هذا أول فشل يتعرض له صلاح الدين بعد نصر موقعة حطين .



مسجد الصخرة بالقدس

الحملة الصليبية الثالثة

أرسل كونراد دى مونتفرات إلى الغرب يطلب النجدة من الملوك والأمراء وكان أول من استجاب لنجدة بيت المقدس ملك صقلية الذى أرسل أسطول يحمل الفرسان إلى طرابلس ولكن فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا خرج سنة ١١٨٩ على رأس جيش كبير من مائة ألف مقاتل فى اتجاه الشام عن طريق البر وأخذ المسلمون فى بلاد الشام يتابعون الموقف فى قلق بالغ بعد أن عرفوا أن إمبراطور ألمانيا سار إلى الشام على رأس جيش مكون من مائة ألف مقاتل وأرسل صلاح الدين الجواسيس لمعرفة أخبار تقدم الألمان وأسرع صلاح الدين إلى إخلاء وهدم بعض المراكز خوفاً من استخدامها ضده من قبل الصليبيين لذلك هدم سور طبرية ، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وأسوار صيدا وجبيل .

ولكن الله تعالى لطف بالمسلمين عندما غرق فردريك بربروسا أثناء عبوره نهر صغير فى قيليقية فتبدد جيشه الكبير وتفرق مما جعل المسلمين يهللون على أثر غرق فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا .

ولكن خروج فردريك بربروسا على رأس الحملة الألمانية لم يكن إلا جزءاً من الحملة الصليبية الثالثة أما الجزأين الهامان فى الحملة فكان بزعامة ملك فرنسا وبزعامة ملك انجلترا وقد اتجه الملكان قاصدين الشرق سنة ١١٩٠ وكان صلاح الدين قد أطلق سراح الملك جاى لوزجنان وأطلق معه مجموعة من الأمراء وكذلك والد كونراد دى مونتفرات وكانت صفة التسامح مع الصليبيين قد عانى منها صلاح الدين كثيراً ولكنه كان من الصعب عليه أن يتخلى عن صفاته التى خلدت فى التاريخ الغربى والعربى على السواء وعلى الجانب الآخر كثيراً ما عانى صلاح

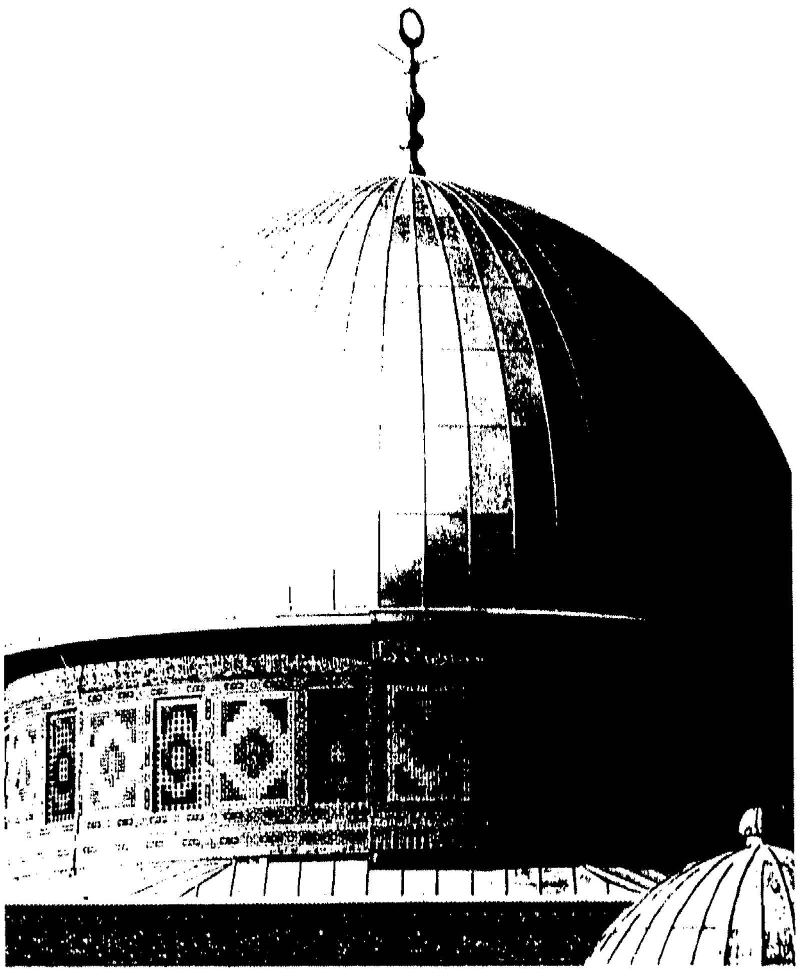
الدين من الغدر والخيانة ونكث العهود التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من سياسة الصليبيين تجاه صلاح الدين الرجل الذى يتحلى بالسماحة وكرم الأخلاق وكان جاى لوزجنان وزوجته قد اتجهوا إلى صور ولكن كونراد دى مونتفرات رفض أن يسمح لملك بيت المقدس جاى لوزجنان بدخول المدينة .

ولكن جاى لوزجنان اتجه إلى غزو عكا بعد أن جمع بعض الفرسان وكان زحف الصليبيين إلى عكا فى ظل ظروف قاسية ولكن صلاح الدين كان محاصراً قلعة الشقيف أرنون وكان مشغولاً بها .

وأرسل صلاح الدين بعض القوات لوقف تقدم جيش الصليبيين وأراد صلاح الدين أن يقضى على الصليبيين عند مضيق بين صور وعكا ولكن أصحابه عارضوه وقالوا الأفضل مهاجمة الصليبيين أمام عكا حتى يقع الصليبيون بين جيوش صلاح الدين وبين حامية عكا من المسلمين ونزل صلاح الدين على رأى أصحابه وكان فى استطاعة صلاح الدين القضاء على هؤلاء الصليبيين بقيادة جاى لوزجنان ولكن وصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوربى أمدهم بقوة كبيرة أمام عكا وفى نفس الوقت وصل كونراد دى مونتفرات على رأس جيش قادماً من صور وبذلك أصبح صلاح الدين فى موقف شديد الحساسية واضطر إلى الهجوم على الصليبيين أمام عكا واستطاع أن يلحق بجيوش العدو خسائر كبيرة ولكن حدث أن انتشر وباء على أثر كثرة القتلى من الجانبين ولكن الأمراء أشاروا على صلاح الدين الابتعاد عن عكا قليلاً وعند ذلك شرع الصليبيون فى حفر خندق حول عكا وتمكن الصليبيون من حصار عكا وبداخلها المسلمين .

ولكن الأسطول المصرى بقيادة حسام الدين لؤلؤ نجح فى إمداد المسلمين المحاصرين بعكا بعض المؤن وجماعة من الأمراء وجنود ولكن ظل التفوق حليفاً للصليبيين من ناحية التفوق البحرى وكذلك كثرة العدد واستمر الحصار ونفذ التموين وانتشر الوباء وتعرض المسلمون للمجاعة داخل عكا وقد نجحت ثلاثة سفن

مصرية ضخمة فى تنزيل حمولتها إلى عكا ليلاً حتى تنقذ المسلمين من المجاعة كما نجح صلاح الدين فى إنزال قوات جديدة إلى عكا وسحب القوات السابقة ولكن وصول فيليب أوغسطس ملك فرنسا إلى الشام الذى قرر عدم انتظار ريتشارد ملك انجلترا وإنما بدأ فى مهاجمة عكا وأخذ الصليبيون يعملون آلات الحصار فى أسوار المدينة كما عملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة وزاد الأمر خطورة بوصول ريتشارد ملك انجلترا إلى عكا ، لكن حامية عكا الإسلامية أظهرت بطولة وشجاعة بقيادة قراقوش وظلت صامدة أمام هؤلاء القواد العظام وقام صلاح الدين بعدة هجمات على الصليبيين ليصرفهم عن عكا ولكن ماذا تفعل الحامية الإسلامية بعكا أمام جيوش فرنسا وانجلترا ، أدرك صلاح الدين أن المعركة ليست عكا فقط ولكن الشام بأكمله وانتهى الأمر بعد عامين من الحصار إلى الاتفاق على السماح بخروج حامية عكا مقابل فدية مائتى ألف دينار وإطلاق سراح ألفين وخمسمائة من الأسرى الصليبيين .



قبة مسجد الصخرة بالقدس

صلاح الدين وريتشارد

بعد أن استولى الصليبيون على عكا اعتذر ملك فرنسا فيليب أوغسطس عن البقاء بالشام بسبب مرضه وغادر الشام فى أغسطس سنة ١١٩١ وبذلك أصبح المسئول عن الصليبيين هو ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

ولكن الفارق واضح بين صلاح الدين وريتشارد ، فبينما نجد صلاح الدين يتسم بالتسامح والكرم والمروءة والعفو والوفاء بالعهد . ولكن ريتشارد قلب الأسد اختلف عن صلاح الدين فقتل ريتشارد حامية عكا الإسلامية بعد الاتفاق على منحهم الأمان وكانوا حوالى ثلاثة آلاف مسلم وعلى الرغم من ذلك رفض صلاح الدين أن يقتل الأسرى الصليبيين الذين كانوا فى حوزة المسلمين ورفض صلاح الدين المفاوضات حول بيت المقدس وزحف ريتشارد إلى حيفا واستولى عليها بعد أن تركتها حاميتها الإسلامية ثم زحفوا إلى قيسارية واستولوا عليها فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ وفى نفس الوقت كان المسلمون ينقضون على مؤخرة الجيش الصليبى ولم تنقطع الاشتباكات بين الطرفين طوال زحف الصليبيين واتجه ريتشارد إلى أرسوف ودارت موقعة أرسوف بين صلاح الدين وريتشارد فى ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ وكان النصر فى البداية مع المسلمين الذين أوشكوا أن يقضوا على الصليبيين ولكن ريتشارد أعاد تنظيم قواته وتحولت المعركة إلى صالح الصليبيين وأدى انتصار الصليبيين فى أرسوف إلى شعور الصليبيين بالثقة فى أنفسهم .

أراد صلاح الدين بعد هزيمة أرسوف أن يدفع عن عسقلان ولكن أمراؤه رفضوا ذلك وقالوا له « إن أردت حفظها فأدخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا !! » .

ولكن صـلاح الدين خـافـ أن يستـغل الصليـبيـون عـسقلان أو أن يتـرك شىء يستفيد منه الصليبيون .

لذلك أمر بتـدمير عسقلان على وجه السرعة وإحـراقها وهدم أبراجـها بحيث لم يترك شيئاً يستفيد منه الصليبيون واتجه إلى بيت المقدس فى نـهاية سنة ١١٩١ .

بيت المقدس

اهتم ريتشارد بالاستيلاء على يافا وتعميرها وأرسل كونراد دى مونتفرات إلى صلاح الدين يطلب مصالحته ويتعهد بمحالفته ضد الصليبيين على أن يأخذ صيدا وبيروت وكان ريتشارد يؤيد جاى لوزجنان ويعطف عليه ضد كونراد دى مونتفرات ولكن صلاح الدين طلب من كونراد دى مونتفرات أن يسلمه أسرى المسلمين الموجودين فى صور وعكا وعندئذ يسلمه صلاح الدين صيدا وبيروت ولكن ريتشارد أحس بهذا الاتفاق واستطاع استرجاع كونراد دى مونتفرات إليه .

وتحرك ريتشارد من يافا إلى الرملة واللد ولكنه وجدهما أنقاض على أثر تدمير المدنيين على يد صلاح الدين ونصب الصليبيون معسكرهم فى الرملة وكان صلاح الدين قد عسكر فى النطرون وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد نحو النطرون أمر بهدم النطرون واتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس لتقويته فقسم سور بيت المقدس على أولاده وأخيه وجنوده وكان صلاح الدين يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به العسكر .

واضطر ريتشارد إلى العودة إلى الرملة وإجراء بعض المفاوضات مع الملك العادل الذى أناب عن صلاح الدين ولكن المفاوضات تعثرت بسبب إصرار الصليبيين على ارجاع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قبل حطين ولكن صلاح الدين رد على ريتشارد وقال له « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا ، فلا تتصور أن نتنازل عنه ، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين » .

واقترح ريتشارد على الملك العادل أن يتزوج من الأميرة جوانا أرملة ملك

صقلية وأخت ريتشارد وأن يشترك الزوجان فى حكم بيت المقدس ولكن لم يتم هذا الزواج بسبب رفض الأميرة جوانا بأن تتزوج من مسلم .

وظهر الخلاف من جديد بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان ورأى ريتشارد أن يعقد اجتماعاً عاماً للأمراء والفرسان حتى يتم اختيار ملك مملكة بيت المقدس .

واستقر الأمر على اختيار كونراد لعرش المملكة ولكن كونراد قتل على يد أحد الباطنية وتم اختيار هنرى دى شامبنى لعرش المملكة ولكن وصلت إلى ريتشارد أخبار من الغرب تؤكد على قيام أخيه حنا بثورة ضده .

ولكن حدث اختلاف بين الصليبيين حول الزحف إلى بيت المقدس ومحاصرتها حيث أيد الصليبيون الفرنسيون فكرة مهاجمة القدس بينما عارض ريتشارد والإنجليز ذلك بسبب عدم وجود مياه خارج المدينة وقال ريتشارد « هذه المدينة لا يمكن حصارها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة ، لأننا إن نزلنا من الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محاصرة فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه » وأرسل ريتشارد فى طلب الصلح .

صلح الرملة

أراد ريتشارد أن يسرع إلى العودة إلى بلاده بعد قيام أخيه بثورة ضده ، كما أن صلاح الدين أراد أن يتفرغ إلى شئون دولته ولذلك دخل الجانبان فى مفاوضات

واقترح ريتشارد على صلاح الدين أن يحكم هنرى دى شامبنى مملكة بيت المقدس ولكن تحت حماية المسلمين ويكون هنرى وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وفى طاعته وطلب ريتشارد من صلاح الدين ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين وحماية الأماكن المقدسة وبخاصة كنيسة القيامة وأن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلى يافا ولكن بشرط أن تكون عسقلان وما وراءها خراباً لا للمسلمين ولا للصليبيين ولكن رفض ريتشارد تسليم عسقلان وتخريبها .

وأسرع صلاح الدين بالهجوم على يافا وحاصرها وأخذها عنوة ولكن ريتشارد أسرع إلى إنقاذ يافا وتمكن من مهاجمة المسلمين وإنزال الهزيمة بهم فى أغسطس سنة ١١٩٢ وكانت مع ريتشارد قوة صغيرة وأراد صلاح الدين أن يستغل ذلك وأن يقوم بهجوم ولكنه لم يجد تأييد من رجاله .

ولكن ريتشارد مرض فى يافا وأخذ صلاح الدين يقدم كل معونة فى مرضه وقد وصفوا الأطباء لريتشارد الفاكهة والثلج فأخذت رسله تتردد على صلاح الدين فى طلب الفاكهة والثلج وكان سلوك صلاح الدين له أثره الطيب فى نفس ريتشارد وأدرك صلاح الدين أن ريتشارد مضطر إلى العودة إلى بلاده واشتد المرض على ريتشارد وأصر على الاتفاق مع صلاح الدين قبل مغادرة الشام .

ولكن وجود مشكلة عسقلان وغزة والداروم والتى أراد صلاح الدين استردادها

والتى رفضها سابقاً ريتشارد ولكن ريتشارد اضطر للتنازل عن بعض شروطه وعقد صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ونص الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا ، أما عسقلان فتكون للمسلمين وتكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين والأماكن المقدسة فى أيدى المسلمين على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس وأن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، وقع على الصلح هنرى دى شامبنى وباالليان الثانى دى ابلين نيابة عن ريتشارد والملك الأفضل والملك الظاهر ابنا صلاح الدين والملك العادل نيابة عن صلاح الدين .

وعادت الحياة الطبيعية وأقبل الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس وبالغ صلاح الدين فى إكرام من يرد إلى بيت المقدس من حجاج مسيحيين وقدم الطعام لهم .

وعاد صلاح الدين إلى دمشق وكان يوم دخوله إليها مشهوراً وفرح الناس به فرحاً عظيماً لطول غيبته وذهاب العدو عن الشام والتقى فى دمشق بأولاده الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ولحق به أخوه الملك العادل .

وفاة صلاح الدين

أخذ صلاح الدين بعد مغادرة ريتشارد قلب الأسد بلاد الشام فى عمارة البيمارستان والمدرسة فى بيت المقدس ومن بيت المقدس اتجه إلى نابلس وسبسطية وكوكب وبيروت وأخذ يتفقد القلاع ثم اتجه إلى دمشق .

ولكن لاحظ على صلاح الدين ثقل الحركة والكسل وانحراف المزاج وخرج صلاح الدين لاستقبال الحجاج سنة ٥٨٩هـ فى يوم عظيم اجتمع فيه جمع كبير من أهل دمشق فعاد ومرض من يومه مرضاً حاداً « حمى صفراوية » واشتد الألم فى رأسه ولم ينجح الأطباء فى علاجه إذ أخذ المرض فى ازدياد سريع وطلب ماء ليشرب ولكن صلاح الدين شكا من شدة حرارة الماء ولما أحضر ماء مرة ثانية شكا صلاح الدين من برودته وقال « سبحان الله ، ألا يمكن لأحد تعديل الماء » .

ولكن المرض اشتد على صلاح الدين وأخذ يغيب ذهنه وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ زاد المرض عليه وتوفى فى هذه الليلة بعد مرض استمر اثنا عشر يوماً .

ودفن فى قلعة دمشق ونقل إلى المدرسة العزيزية التى بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين بعد ذلك .



مأذنة جامع الناصر
محمد بن قلاون بالقلعة

صفات صلاح الدين

توفى صلاح الدين عن سبع وخمسين عاماً وأن شهرة صلاح الدين فى التاريخ ترجع إلى صفاته التى تحلى بها فقد كان كريم الخلق حاكماً عادلاً وكان منهج صلاح الدين فى الحكم هو ماقال له لابنه الملك الظاهر عندما خرج إلى إمارته حلب وقال له بعض النصائح « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أميلى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، لا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد وإضرار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه الكريم » .

كما ألغى بعض المكوس والضرائب ورفع الظلم عن الناس وألغى الضريبة التى كانت تفرض على الحجاج وإنشاء عدد من الكتاتيب وخصص المعلمين لتعليم الأيتام والفقراء وإنشاء المارستان فى القاهرة وهو مستشفى كبير ورتبت فيه ثلاث أقسام للعلاج أولها خاص بالرجال وثانيها خاص بالنساء والثالث خاص بالأمراض العقلية .

ومن أهم صفاته شجاعته وجهاده فقد كان لا يقنع إلا بالخروج إلى الحرب ويشارك الجند المخاطر وأهوال الحروب وكان محباً للجهاد « لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله » .

وكان تدين صلاح الدين واضح فى المحافظة على صلاة الجماعة حتى فى مرضه وكان حرصه على الصيام مثل حرصه على الصلاة أما الحج لم يستطع بسبب الجهاد الذى أخذ كل وقته ولم يستطع الحج أيضاً بسبب نقص المال فلم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهماً ناصرية .

يحب سماع القرآن والحديث ويعرف عن صلاح الدين الصبر والإيمان بالله وقضائه وهذا الصبر هو الذى جعله يوصل الجهاد سنوات طويلة وكان يقاتل فى بعض الأحيان وهو يعانى الألم والمرض ويصبر عليه .

أما عن كرمه فقد كان يعطى فى وقت الضيق مثلما يعطى فى وقت السعة وعن عدله فقد جلس صلاح الدين ينظر فى شكاوى الرعية بنفسه وجعل ذلك يوم الاثنين والخميس .

أما مروءته وتسامحه فقد كانت من الصفات التى أجمع عليها الناس العدو قبل الصديق وقد حضرت إليه امرأة صليبية تبكى على فقد ابنتها فأمر صلاح الدين من يذهب إلى سوق العسكر ويسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها .

وكان رحمه الله ـ كريماً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً ـ اللهم ارحم صلاح الدين الذى بذل الجهد فى نصرة الدين .



صورة لصلاح الدين

الفهـــرس

هذا الكتاب

عزيزى القارىء .

يسعدنا أن نقدم لك أيها القارىء العزيز بطلاً من أبطال الأمة العربية وعلماً من أعلام الجهاد وهو صلاح الدين الأيوبى القائد الذى استطاع أن يجمع بين شجاعة القتال والنضال وكريم الشيم والخصال .. فهو نموذج فريد من نماذج القادة الأبطال الذين جمعوا بذكاء بين البطولة المبهرة والأخلاق العظيمة العاطرة .

أيها القارىء العزيز .. بكل الفخر والاعتزاز نقدم لك البطل صلاح الدين ليكون مثلاً يحتذى وقدوة ستجد فيها إن شاء الله من الأخلاق ما يسعدك أن تتحلى بها ..

والله من وراء قصدنا هو المؤيد والناصر .

الناشر